جامعة ديالى

كلية التربية الاساسية — المادة: الادب الاندلسي

قسم اللغة العربية — مفردات المنهج

الدراسة الصباحية

المرحلة الثالثة

- مدخل تاريخي عن الفتح العربي الإسلامي في الأندلس
- الفنون الأدبية:

1. الشعر.

- الخصائص الفنية
- فنون الشعر الأندلسي

أ. الفنون التقليدية: ابرز أغراضها: (الوصف ، المديح، الغزل)

ب. الفنون المستحدثة: (الموشحات والازجال)

ابرز الشعراء: حياتهم ونماذج من أشعارهم: (ابن زيدون– ابن هانئ الأندلسي–ابن خفاجة–الرصافي البلنسي–ابن شريف الرندي)

2. الفنون النثرية:

أ. الرسائل.

ب. المناظرات.

ج. المقامات.

مدخل تاريخي عن الفتح العربي الاسلامي للاندلس .

كان القوط هم الذين دخلوا هذه البلاد في القرن الخامس للميلاد واقاموا فيها مطمئنين بعد ان قضوا على سلطان الرومان واقاموا سلطانهم ،وانتحلوا النصرانية ديناً ولكنهم صاروا بها الى الاضطهاد والى احتقار الرومان لانهم مغلوبون ،فطبيعي ان تقضي هذه الحالة الى اختلال في بناء الدولة ،وان يمقتها اكثر الشعب ويتمنى زوالها ،وكان على اسبانيا ملك يقال له (لذريق) اغتصب العرش القوطي بعد وفاة الملك (غيطشة) وكانت مدينة (سبته) الواقعة في اقصى شمال المغرب يحكمها عامل لقصير الروم يدعى (يليان) وكانت بينه وبين لذريق عداوة شديدة حملت يليان على السعي لاسقاط لذريق وفل عرشه ، لذلك ليس عجيباً ان نراه يساعد العرب ويمهد لهم سبيل الفتح (فكتب الى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يزين له فتح الاندلس ويصف خصب ارضها و وفرة اموالها وسهولة التغلب عليها لتخاذل اهلها وانقسام بعضهم على بعض و وعده بالمساعدة ، فاستاذن موسى بن نصير الخليفة بغزو الاندلس فاذن له على ان ياخذ حذره ، وبخوصها اول الامر بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال فبعث موسى مولى له من البربر اسمه (طريف بن ملك النخعي) في اربعمائة راجل ومائة فرس ، فحملتهم اربع سفن لـ (يليان) الى جزيرة (الفندال) التي اشتق منها اسم الاندلس فسميت جزيرة (طريف) لنزوله بها واقاموا بها اياما ثم عادوا الى المغرب وقد اصابوا مالاً جسيماً وسبياً لم ير موسى واصحابه مثله .

وعاد يليان يحرض موسى على اقتحام الاندلس حتى اغراه وفي الواقع لم يكن موسى يريد ان يقوم بحملة كبيرة انما كان يرغب القيام بغزو متعباً بذلك توصية الوليد ويدافع هذه الفكرة دعا بربرياً من مواليه اسمه (طارق بن زياد) فعقد له وبعثه في سبعة الاف من البربر ليس فيهم الا القليل من العرب فأقلتهم سفن يليان التجارية لخمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ /٧١١ م فسارت بهم عبر الزقاق من سبته الى جزيرة الفندال ويسميها العرب الجزيرة الخضراء . . . وعند ما علم ملك الاسبان (لذريق) بقدوم المسلمين حشد الجيوش واتجه جنوباً وفي وادي (لكه) التقى الفريقان وكان جيش طارق قد امد بخمسة الاف بربري جاؤه من المغرب فبلغ جيشه اثنى عشر الفاً وبعد معارك دامت ثمانية ايام تم النصر للمسلمين في رمضان سنة ٩٢ هـ .

وبلغ موسى بن نصير فتح الاندلس فحسد طارقاً وطلب اليه ان يتوقف عن الايغال في البلاد حتى يأتي اليه ، ولكن طارقاً لم يطعه بل تابع الفتح واراد موسى بن نصير ان يناله نصيب من المجد فحشد جيشاً يزيد على العشرة الاف من البربر والعرب وعبر البحر ودخل الاندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ ولكنه لم يلحق طارقاً وانما سار غرباً وسلك طريقاً

اخر فافتتح اشبيلية وماردة في غرب اسبانيا ، هذا وقد كانت جيوش طارق قد افتتحت اكثر الاندلس عندما ذهب موسى الى طليطلة فاستقبله فيها طارق ونزل اليه اعظاما الا ان موسى وبخه على عصيانه ثم اظهر الرضا عنه ،وتابع واياه الفتح متوغلين في البلاد الفرنجية وبينما كانا ينتقلان من بلد الى اخر اذا بامر الخليفة الوليد بن عبد الملك يدعو موسى اليه وقد بلغه ما اصاب من الاموال والغنائم فولى موسى ابنه عبد العزيز على الاندلس وعاد مع طارق قاصدين الشرق ، وكانت اسبانيا المسلمة قد ادركت حدودها النهائية في الفتح واستمر حكم المسلمين في الاندلس ما يقرب من ثمانية قرون وهذه المدة تقسم الى عصور هي:

١. عصر الولاة : وهو العصر الذي يبدأ بالفتح الاسلامي سنة ٩٣هـ ـ ٧١٢ م وينتهي بقيام دولة بني امية في الاندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨هـ ويسمى هذا العصر عصر الولاة لكون الاندلس كانت تحكم فيه بواسطة وال يعينه خليفة دمشق واحياناً يعنيه حاكم شمال افريقا .

٢. العصر الاموي : ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بني امية في الاندلس تلك الدولة التي تبلغ ذورة مجدها في عهد عبد الرحمن الناصر الذي يجعل منها خلافة عظيمة وينتهي هذا العصر بانتهاء ملك بني امية هناك بعد سلسلة من الخلفاء والعاجزين واختيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهوري سنة ٤٢٢هـ ـ ١٠٢١م .

٣. عصر ملوك الطوائف : ويبدأ بسقوط الدولة الاموية وقيام عدة ممالك مستقلة تقسمت الاندلس معها الى طوائف وعلى كل طائفة مليك وينتهي هذا العصر باستيلاء المرابطين على الاندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣هـ ـ ١٠٩١م .

٤. عصر المرابطين : ويبدأ باستيلاء ابن تاشفين وجيوشه الافريقية على الاندلس وينتهي بحلول الموحدين محل هؤلاء المرابطين في حكم الاندلس سنة ٥٤١هـ ـ ١١٤٦م .

٥. عصر الموحدين : ويبدأ بحكم هؤلاء الافريقيين للاندلس وينتهي بسقوط دولتهم وانتزاع المسيحيين الاسبان للكثرة الغالبة من الاقاليم التي كانت في ايدي المسلمين وحصر الدولة الاسلامية الاندلسية في جزء صغير جنوبي الاندلس وهو مملكة غرناطة وذلك نحو ٦٦٨هـ ـ ١٢٦٩م .

العصر الغرناطي : ويبدأ بتاسيس مملكة غرناطة على يد ابن الاحمر وينتهي بتسليم هذه المدينة الى الاسبان سنة ٨٩٨هـ ـ ١٤٩٢م .

خصائص الشعر الاندلسي[1]

ان الشعر الاندلسي تاخر ظهوره عن الشعر المشرقي عشرات السنين فلما ظهر كانت النماذج المشرقية امامه هي الشعر المحدث ،وان الاندلسيين احسوا منذ البداية بان المشرق قد اعطاهم مذهبين او طريقتين طريقة تلتزم اصولاً معينة تسمى (الشعر المحدث) وطريقة تختلف عن الاولى في الكثير من مظاهر الصنعة خاصة تسمى (طريقة العرب الاوائل) وقد عاشت الطريقتان معاً في الاندلس ،وكان وفود القالي[2] من عوامل تقوية الاتجاه الثاني ولكن ظل انحياز الشعر الإندلسي الى طريقة المحدثين اوضح واقوى ،ومعنى ذلك اننا نتردد في قبول قول الاستاذ غرسيه ((وكذلك المحدثون ، لم يكن لهم عند شعراء الاندلس اثر بعيد ،فيما خلا بدوات نلمحها بين الحين والحين)) .

وعلينا ان نتذكر منذ البداية ان الاثر يمتد في اتجاهين ، اولهما ، اثر في الموضوع والثاني ، اثر في الشكل والطريقة الشعرية ، وليس من السهل ان يقال ان الشركة في الموضوع تدل على تقليد او محاكاة لان مواد الحياة في طور حضاري ما قد تكون متشابهة وهي التي تصنع الموضوع الشعري ، وقد تاثر شعراء الاندلس بعدد من شعراء المشرق مثل ابي العتاهية وابي نؤاس وابي تمام وابن الرومي ،ولكن ابا تمام كان اعمقهم اثرا في الشعر الاندلسي من حيث المبنى الشعري والشكل .

ومهما يكن من شيء فان الشعر الاندلسي حتى اوائل القرن الخامس الهجري قد تنكب طريق التامل النفسي او العمق الفكري وتعلق بالمحسوسيات يدور حولها او يتحدث عنها او يصفها ،حتى مشكلة الموت لم تخلق فيه تاملا من نوع عميق فاذا شاء التعبير المباشر عن العلاقات الانسانية جاء جافيا غير مصقول ليست فيه حلاوة موسيقية وهذا ما يغلب على شعراء الفترة الاولى أي عهد الامارة ولكن اهم ما يشغل خواطرهم ايراد الصور المتلاحقة دون توقف على نحو يخيل للقاري ان الشاعر لا يرى الشعر الا نقلاً متتابعاً للصور المتلاحقة ، كقول طاهر بن محمد المعروف بالمهند :

وليل بت اكلؤه بهيم	كأن على مفارقة غرابا
كأن سماءه بحر خضم	كساه الموج ملتطماً حبابا
كان نجومه الزهر الهوادي	وجوه اخضلت تبغي الثوابا
كأن النجم معترضاً وشاة	تسارق فيه لحظاً مستراباً
كان كواكب الجوزاء شرب	تعاطيهم ولائدهم شرابا

(١) تاريخ الادب الاندلسي، عصر سيادة قرطبة ،د. احسان عباس ، ص ١٢٤ .

(٢) هو ابو علي القالي رحل من العراق الى الاندلس في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر .

كـأن الفرقديـــن ذوا عتـــاب اجـالا طـول ليلـهما العتابـا

وليس هذا مثالاً واحداً بل الامثلة متعددة ، وانما نكتفي بايراد مثال اخر لابن هذيـل يصـف الزهراء فيقول :

كأن حناياهـا جناحـا مصفـق اذا الهبته الشمس ارخاهـا نشـراً
كان سواريها شكت فترة الضنى فباتت هضيمات الحشا نحلاً صفرا

وهكذا تستمر صوره متتابعة في ستة ابيات متتالية، وكـان لطلـب الصـورة بـهذا الاسراف اثار بالغة في ذلك منها، انحياز الشعر الى جانب الصناعة التي تفرض على الشاعر ان يبتعد عن الصورة الكلية للمنظر وان يتناول اجزاءه ويصفها عن طرق التشبيه ،وهذا ايضاً اضعف ما كان يمكن ان يتوفر في القصيدة من وحدة كما ان الشغف بـالتصوير كثـيراً مـا اخرج الشاعر الى الاحالة مثل ما قال الشاعر في وصف الليل وسكونه (والليل كفكر في اقامة دولة) على انه قد يصح للشاعر احيانا ان يجمع بين الجزالة المتدفقة والتصوير فـي نطـاق واحد فيخرج بشعره عن مستوى الصور المتلاحقة دون ترابط معنوي ومن ذلك قول عبـادة يصف وفود الروم امام احد خلفاء بني مروان وكيف تقدموا بين صفوف من العساكر تحمـل رايات متنوعة منها ما يمثل صور الحيات والاسود الفاغرة والنمور الجائعة والعقبان الكاسـرة فالمنظر اندلسي الصيغة ولكن الشاعر يستغل اية صورة تخدم غرضه في اظهار ذلك المنظـر العام ولو كانت صورة بدوية .

١ هذي وفود الـروم نحـوك بـاردت امّ القطـا للنمـل المـورود
٢ وصلوا على مثل الصراط اليك مـن هـولٍ وانفسـهم بـلا مجلـود
٣ في جحفل كـالروض فـي الوانـه يـهفو بـاعلاه سـحاب بنـود
وكانمـا الحيـات فـاغرة بـه تومـي الـى الاعـداء بالتـهديد
وكانما العقبـان فـي نفـح الصبـا تهوي الـى صيـد الكمـاة الصيـد

واحياناً اخرى يبتعد الشاعر عن الصور وينطلق على سجيته تقوده المعاني او يقودهـا في تعبير سهل بسيط ،وهكذا نجد انه ليس من السهل ان ندرج الشعر الاندلسي تحت مقولـة واحدة . فهناك الشعر الفج الجافي واخر السهل السائغ المنعش في يسر وهنـاك التصويـر المتكلف المخفق والتصوير المبتدع الموفق وثمة توجد الاصالة كما يوجد الاغـراب وتتوفـر البساطة كما تتوفر الجزالة .

الخصائص العامة للشعر الاندلسي

يقول غرسيه غومس ((وقد نبع الشعر الاندلسي من بحر الشعر المشرقي وتاريخه يصور لنا التطورات التي المممنا بذكرها فلقد كان لشعراء الاندلس ولع بدراسة الشعر الجاهلي ولكنهم يرون فيه شيئاً اثرياً قديماً فلم يكن له في نفوسهم اثر فعال ،وكذلك ((المحدثون)) لم يكن لهم عند شعراء الاندلس اثر بعيد فيما خلا بدوات نلمحها بين الحين والحين ونلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المجدث وعلة ذلك انه في الوقت الذي ظهر فيه شعر جديد بهذا الاسم في الاندلس كان الشعر القديم المجدث في اوجه في المشرق .

ولابد ان ننبه من اول الامر الى ان الشعر الاندلسي عامة فيما خلا بضع شواذ فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية ومن دلائل ذلك ان الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير وعاشوا اعمارهم كلها مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة ،ومن ثم لم يستطيعوا ان يدخلوا على الشعر من التغيير الا اشياء تمس المعاني متلهم في ذلك مثل اترابهم من المشارقة فحالوا ان يعطوا هذه المعاني صوراً جديدة عن طريق تقطيرها في انابيب بلاغية و اوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية الاربسكية[1] التي تشبه ان تكون (قصور حمراء) لغذلية فاذا كانت القصائد الاندلسية المنمقة المترفة المعقدة المثقلة على هذه الدرجة من البعد عن الترتيب الذهني بل من الاحساس الانساني في احيان كثيرة فمن الطبيعي ان تنقصها تلك المرونة السائغة التي نجدها في الشعر القديم ولم يكن هذا الشعر الاندلسي مترعا بالاخيلة فحسب بل كان مثقلا بها جعل منها فوق ما يطيق بل بلغ من حشد المعاني فيه ان استعصى معظمه على الحفظ والبقاء وكاد يعسر على الفهم الكامل .

يقول البارون فون شاك : مهما يكن من أمر فان الشعر الاندلسي

((ان اشعار الاندلسيين امتازوا بصفة عامة ، بجزالة الالفاظ ،وجمال رنينها وابداع الاخيلة وبعد مداها وبدلا من ان يجعلوا الالفاظ مراكب للافكار وبدلا من ان يدعوا القلوب تعبر عن احاسيسها في فيض طبيعي نجدهم يغدقون علينا طوفانا من الالفاظ الرنانة والاخيلة البراقة .

وكأنما لم يقنعوا بتحريك عواطفنا فطلبوا اعشاء ابصارنا ، وان اشعرهم لاشبه بالعاب نارية تمضي ثم تتلاشى في الظلام فتنير العقول لحظة بوميضها ، ولكنها لا تترك في النفس اثرا دائما بسبب ما تحويه هذه الاشعار من الالوان المختلفة وصور التشبيهات يتوالى بعضها في اثر البعض دون ما ادة وقد كان تزاحم كثير من الشعراء على التفوق ورغبتهم في الاتيان

(١) اربسكية : كلمة افرنجية نجدها في اللغات الاوربية كلها ، ومعناها عربي الروح ولكنها لا تستعمل الا في مواضيع الفن ويراد بها الزخرفة الهندسية المتشابكة التي تعرفها في الزخارف الاسلامية .

باحسن مما اتى به من سبقهم او نافسهم من مشاهير الشعراء سبباً في اسراف الكثير من اشعارهم في ذلك التكلف اسرافاً ادى الى ضياع قيمتها اذا اصبحت مجرد ايماض عابر لا يترك في النفس اثراً .

عناصر المجتمع الاندلسي .

كان المجتمع الاندلسي ،خلال القرن الاول للفتح العربي لاسبانيا يتالف من عناصر مختلفة الاصول يكون الجزء الاكبر منها الشعب الايبيري الذي كان قبل دخول العرب الى اسبانيا شعبا اوربيا نصرانيا كاثوليكيا في غالبيته العظمى تعيش فيه جماعات قليلة من اليهود وكان يتكلم لغة هي خليط من الرومانية والايبيرية وفيها بعض العناصر القوطية ولكن الطابع الروماني كان هو الغالب عليها فلهذا سماها العرب عجمية اهل الاندلس الو الامر ثم بعد اطلاعهم على حقيقتها دعوها اللاتينية .

ويعتبر الايبيريون هم اساس السكان الاصليين في شبه الجزيرة ، وهم جنس من البربر قديم استوطن شبه جزيرة ايبريا منذ اقدم العصور قادما اليها من شمال افريقا وقد اطلق عليهم منذ القديم اسم (الموريين) وهو من الالفاظ الاغريقية (Mauroi) واختلط به جنس اوربي قديم جرماني في الغالب فكون هذا المزيج بين هذين العنصرين الشعب الاصلي لشبه الجزيرة والمعروف الايبيري (Los Iberos) .

وقد تتابع ، بعد ذلك هجرات عديدة الى شبه الجزيرة اهمها هجرة (الكلت) الذين اختلط معظمهم بالسكان الايبيرين ايضاً ،ثم اتى الى البلاد جماعات من الفينقيين واليونان ثم جاءت موجة الفتح الروماني الذي عم البلاد كلها فطبعها بطابعه الروماني حتى ان سكانها اصبحوا يسمون منذ ذلك الزمن بالايبيرين الرومان .

اما دخول العرب الاندلس فكان على شكل موجات متتابعة لم يصلنا من اخبارها الا ما جاء في المراجع عن عدد قليل يسمى (الطوالع) جمع (طالعة) واول طالعة من العرب دخلت الاندلس هي طالعة موسى وكانت تضم نحو اثني عشر الفاً من العرب ،في رواية او ثمانية عشر الفاً حسب رواية اخرى وكان بين رجال هذه الطالعة كثير من التابعين ومن شيوخ القيسين واليمانيين ومواليهم وموالي بني امية ، واهم الطوالع التي دخلت الاندلس بعد طالعة موسى ، هي طالعة بلج بن بشر القيسي سنة ١٢٣هـ ـ ٧٤١م ، وكان عدد افراد هذه الطالعة حوالي عشرة الاف غالبيتهم من القيسين .

وكان اهل الطوالع السابقة قد اختاروا لاستيطانهم احسن ،ما في نواحي البلاد الجديدة هذه التي فتحوها فاستقروا فيها وتسموا بالبلديين ، وحينما نزل بلج وجماعته القيسيون الى الاندلس ، كره البلديون ان ينافسهم في خيرات بلدهم هذا العدد الكبير من الشاميين فشبت

النزاع منذ هذا التاريخ بين القيسية واليمنية في الاندلس ،وكان هذا النزاع في الواقع امتـــداداً للعداوة القديمة المستحكمة بين كلب وقيس وقد زادته الظروف المحلية في الاندلس ، حدة ثـم تطور هذا الصراع بعد ذلك واصبح صراعاً بين حزبين كبيرين غالبية الاول مـــن القيسـية وغالبية الثاني من الكلبية ، وانضمت الى كل من هذين الحزبين جماعات مختلفة من العـــرب بحسب ما كانت تمليه مصالحها الخاصة .

ولقد كان لهذا الصراع القبلي السياسي اثر خطير على الحكم العربي في اسبانيا حتـى ان السلطة العربية هناك اوشكت على الاندثار والضياع الا ان مجيء عبد الرحمـــن الداخـل (١٣٨-١٧٣هـ = ٧٥٦-٧٨٨م) قوى السلطان العربي ، وانقذ الاسلام من الزوال وعنـــد دراستنا للعنصر العربي في الاندلس خلال القرن الثاني الهجري ، الثامن الميلادي تواجـــهنا معضلة تاريخية عويصة الحل ،ذلك إن المعلومات القليلة التي وردتنا عن العرب الذين دخلـوا شبه الجزيرة لا يسمح لنا الا ان نقدرهم ببضعة الاف .

فاذا سلمنا بان طالعة موسى كانت ١٢ الفاً وطالعة بلج عشرة الاف واذا اضفنا الـــى هؤلاء من جاء مع الحر بن عبد الرحمن الثقفي وعددهم اربعمائة فيكون العدد ٢٢٤٠٠ فـــاذا اخذنا بنظر الاعتبار من يمكن ان يكونوا قد استشهدوا في حروب العصبيات والفتـــوح ومـــن دخلوا على شكل جماعات او افراد لم يصلنا خبرهم يظهر لنا اننا لا يمكننا بـــاي حـــال مـــن الاحوال ان نقدر البقية الباقية من العرب في الاندلس ،خلال هذه الفترة بما يزيد عن الثلاثيـــن الفاً ،فكيف تسنى لهذا العدد الضئيل نسبياً ان يغطي شبه الجزيرة الفسيح بهذا الشـــكل الـــذي نعرفه خلال هذه الفترة ؟ ؟ . . والحقيقة ان العرب كانوا قلة بالنسبة للعناصر التي يتألف منها سكان الجزيرة ولكن دخولهم الجزيرة يختلف عن دخول غيرهم للاراضي المحتلة فقد دخـــل العرب الى اسبانيا على شكل جيوش منظمة ليس معهم عوائلهم ،فكان من الطبيعي ان يتخـذوا لهم نساء من اهل البلاد وان تصبح المصاهرة بينهم وبين الاسبان امراً لابد منـــه ،وتعطينـــا المراجع العربية فكرة واضحة عن نسبة التوالد نتيجة هذا التزاوج بين اولئك العرب الفـــاتحين والنساء الاسبانيات ، وقد انتفع الاستاذ حسين مؤنس من الاحصاء الذي قدمه ابن حزم ، فـــي جمهرة انساب العرب ، عن نسل عبد الرحمن الداخل وبنيه ، فخرج بنتيجة طريفـــة هـــي ان اولئك الثلاثين الفاً من العرب الفاتحين اصبحوا بعد عشرين سنة من دخولهم الجزيـــرة ٣٠٠ الف ، وليس في هذه النتيجة حل تام لتلك المعضلة التاريخية الا انـــها تجعلـــها اقـــرب الـــى المعقولية والامكان .

اما البربر فكانت اعداد من اشترك منهم في فتح الاندلس اكثر مـــن اعـــداد العـــرب باضعاف وبعد الفتح انصل تيار الهجرة البربرية الى الاندلس بشكل مستمر وقد استقر البربر الى جانب العرب في بعض نواحي الاندلس وانفردوا بأنفسهم في نواحي اخرى ، وارتبطـــوا

في كل ناحية بالاهلين بروابط الزواج ، وتحولوا بالتدريج الى اندلسيين ولقد كان لهؤلاء البربر المستقرين بالاندلس اثر عظيم جداً في انتشار الاسلام فيه ، ولقد ساعد على بروز هذا الاثر طبيعة البربري وقربه من حيث المزاج ، والاصل ايضاً من اهل البلاد الاصليين وكان البربر اسرع اندمجاً في البيئة الجديدة من العرب لانهم لم تكن لهم عصبية كالعصبية العربية، ولا لغة مكتوبة تحول بينهم وبين هذا الاندماج السريع ، وهكذا لم يكد الجيل الاول منهم يأفل نجمه حتى سطع في الجيل الثاني نجم اندلسي جديد بسي اصله ولم يعرف الا الاندلس وطناً له .

وكان هذا الجيل الجديد يقبل على العربية يتعلمها ويدرس ابناؤه الاسلام ويتفقهون ، فيه ومن الناحية الاجتماعية ارتبطوا باهل البلاد بروابط الصهر والقرابة ، وكان شانهم شان مهاجرة العرب المستقرين في الاندلس استجابوا للبيئة ، فصاروا اندلسيين اسرع من العرب ، والى جانب العرب والبربر كانت هناك طائفة اخرى لعبت دوراً هاماً في توجيه الحوادث طيلة هذه الفترة هي طائفة الموالي .

ويبدو من الاشارات التي وصلتنا عن الموالي في الاندلس ان معظمهم كانوا من اهل المغرب الداخلين في ولاء بني امية او في ولاء عمالهم وان اقلهم كانوا من موالي المشرق ممن دخل في ولاء الامويين من اهل الشام او العراق وفارس ، وتكونت من هؤلاء جميعاً وممن انضم اليهم من موالي بني امية من اهل الاندلس ، كتلة من الموالي الامويين كان لها تاثير كبير في مجرى الحوادث في الاندلس ، والراي الراجح انهم سعوا لتمهيد الامر لعبد الرحمن الداخل ليعتلي السلطة في الاندلس .

ولم يكن الموالي في الاندلس على نفس الحال التي كانوا عليها في المشرق فقد كانت منزلتهم الاجتماعية في المشرق اقل من منزلة الحر اما في الاندلس فقد كانوا في مركز اجتماعي مرموق لا يقل في شيء عن مركز الاحرار وبعد ان اعانوا عبد الرحمن على اقامة دولته اصبحوا في مركز الاحرار وكان امراء بني امية لا يعتمدون الا عليهم فاصبحت بايديهم كل الوظائف الكبرى في الدولة وصار لهم مكان ممتاز في الادارة والمجتمع وساعد على ذلك الظروف المضطربة التي احاطت العرب والتنافس الحاد الذي نشب بينهم ففرق العرب عن بعضهم بينما بقي الموالي كتلة واحدة متراصة ، يحاول كل من اليمنيين والشاميين كسبها الى جانبه .

على ان العنصرين اللذين كانا ، يؤلفان الجزء الاكبر من عناصر المجتمع الاندلسي هما : المولدون واهل الذمة من نصارى ويهود ،وقد كان العرب يطلقون على اهل الاندلس اسم العجم او عجم الاندلس ، ثم بعد ان استتب الامر للمسلمين هناك اخذوا يطلقون عليهم اسم عجم الذمة او اهل الذمة ، اما اليهود فكانوا يسمون (اليهود) او الذميين ، ولما انتشر الاسلام

في البلاد اطلقوا على من اسلم من الاسبان لفظ المسالمة ، مفرد مسالم ، ثم اطلق على اولاد هؤلاء الذين نشاوا على الدين الاسلامي اسم (المولدين) واستمرت هذه التسمية حتى نهاية القرن الثالث الهجري حين انصهر اهل الاندلس في بوتقة واحدة فتكونت منهم الشخصية الاندلسية ، وكان لهؤلاء المسالمة والمولدين وضع لا يختلف عن الوضع العام للعرب والبربر المسلمين اصلاً ، وكان لهم ما للمسلمين دون تفريق او تمييز .

الوضع اللغوي العام :

وكان من نتائج التزواج بين المولدين الاسبان والمسلمين الداخلين الى الاندلس ابتعاد هؤلاء المولدين عن الروابط الروحية التي كانت تشدهم الى اصولهم الاسبانية البعيدة ، ثم نتج عن ذلك التزاوج ايضا حركة اندماج بشرية واسعة بين العناصر التي تكون سكان شبه الجزيرة ، حتى لم يعد من السهل التمييز بين اهل البلاد والوافدين عليها .

والشيء المؤكدة هو ان اللغة العربية ابتداء من القرن الثامن الميلادي او التاسع على الاكثر وحتى القرن الخامس عشر ، لم تكن هي اللغة الوحيدة في الاندلس ، وانما كان الى جانبها كثير من اللهجات الدارجة التي هي خليط من عجمية الاندلس المتألفة في اغلبها من اللاتينية العامة مشوبة بالايبيرية والعربية .

وقد اثبت المستشرق الاسباني (خوليان ريبيرا) في بحث حول هذا الموضوع انه كانت في اسبانيا الاسلامية لغتان ادبيتان هما اللغة العربية الفصحى واللاتينية الفصحى ولغتان عاميتان هما : العربية الدارجة، واللاتينية الدارجة (او العامية) وهي التي تسمى الرومانثي (Romance) اما اللاتينية الفصيحة فكانت تستعمل بصورة خاصة بين رجال الدين الاسبان كلغة للطقوس الدينية وبين المسيحين الاسبان الذين بقوا تحت السلطان العربي في الاندلس .

اما العربية الفصحى كلغة ادبية فلم يقتصر على التاليف فيها العرب الاندلسيون وانما شاعت بين الاسبان ، ايضاً شيوعاً بعيد المدى حتى ان المسيحيين الاسبان الذين كانوا يعيشون بين العرب والذين عرفوا فيما بعد بالمستعمرين (Mozarabes) كانوا يؤثرون استعمال لغة العرب واسمائهم وازيائهم وقد بلغ من نسيان هؤلاء المستعمرين لغتهم وشغفهم بالعربية انهم كانوا (ينظمون من الشعر الغربي ما يفوق شعر العرب انفسهم) في الفن والجمال ، حتى ان الاسقف الفارو القرطبي (في القرن التاسع الميلادي ، الثالث الهجري) اطلق شكواه المرة وحسراته الحارة بسبب ما وصل اليه حال قومه في هذا الشان فقال (ان اخوتي في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وانما لكي يكسبوا من ذلك اسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً واين تجد الان واحداً من غير رجال الدين ، يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت

على الاناجيل المقدسة ، ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين واثار الانبياء والرسل ؟ يا للحسرة ! ان الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وادابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم ينفقون اموالا طائلة في جمع كتبها ، ويصرحون في كل مكان بان هذه الآداب حقيقة بالاعجاب ، فاذا حدثتهم عن الكتب النصرانية اجابوك في ازدراء بانها غير جديرة بان يصرفوا اليها انتباههم ، ياللالم ! لقد انسي النصاري حتى لغتهم فلا تكاد تجد بين الالف منهم واحدا يستطيع ان يكتب الى صاحب له كتابا سليما من الخطأ ، فاما عن الكتابة في لغة العرب فانك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في اسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب انفسهم فنا وجمالا) .

واما العربية واللاتينية العاميتان فكانتا كلتاهما تستعملان، على السواء بين مسلمي اسبانيا وبين من كان يعيش بينهم من المسيحيين الاسبان ، وكان هذا امرا طبيعيا ، فالعرب كانوا يدخلون الاندلس رجالا فقط ويتخذون نسائهم من اهل البلاد فابناؤهم لم يكونوا عربا خلصا، من حيث الدم وان كان احاسيسهم وثقافتهم وفكرهم عربيا ، وكان هؤلاء الابناء يتكلمون لغة امهاتهم الاسبانيات كما يتكلمون لغة ابائهم العرب فنشأت عن هذا الازدواج اللغوي، خلال الاجيال المتعاقبة لغة جديدة هي عبارة عن خليط من لغة البلاد واللغة العربية، عرفت بين عرب الاندلس باسم (عجمية اهل الاندلس) او (اللطينية) كما يدعوها ابن حزم ، ومن الدلائل على ان هذه اللغة كانت غالبة بين الاندلسيين ما ذكره ابن حزم عن جماعة من العرب حيث يقول : (دراباي بشمال قرطبة، وهم هناك الى اليوم على انسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط، نساؤهم ورجالهم ويقرون الضيف و لا ياكلون اليه الشاة الى اليوم ولهم دار اخرى بمرور) وهذا النص يدل على ان عامة العرب في الاندلس كانوا يتكلمون اللطينية وان القبيلة المذكورة قد شذت عنهم في عدم احسانها الكلام بهذه اللغة ، وربما دل قوله (لايحسنون الكلام باللطينية) انهم كان لهم المام بها لا يصل الى حد الاجادة فيها ..

ولدينا نص عن الرحالة المقدسي (اواخر القرن العاشر الميلادي ، اواخر القرن الرابع الهجري) يذكر فيه انه التقى بمكة ببعض الاندلسيين ويشير الى انهم يتكلمون لغتين : لغة عربية يصعب فهمها لاختلافها عن اللغة العربية المشرقية ، ولغة اخرى تشبه في نظره الاغريقية ، وفي الواقع ان هذه اللغة الاخرى لا يمكن ان تكون الا الرومانثية التي كانت شائعة بين الاندلسيين .

ويبدو ان لسان عرب الاندلس قد ابدا يستعجم منذ فترة الولاة ، فقد روى الخشني قصة حدثت لاحد قضاة قرطبة هو يخامر بن عثمان وكان ولي القضاء سنة ٢٢٠ هـ (فعامل الناس بخلق صعب ومذهب وعر وصلابة جاوزت المقدار فلم يحتمل العامة له ذلك

فسلطت عليه الالسن وكثرت فيه المقالة . . . وتألب الناس و رفعوا الى الامير . . يشكون بخامرا القاضي فلما كثر ذلك على الامير عبد الرحمن (الثاني) (حكم في سنة ٢٠٦ ــ ٢٣٨هـ) امر الوزراء بسماع الشهادة والنظر في امر يخامر فذكرت عنه اشياء مدارها على قلة المدارات وترك حسن المعاملة وكان حينئذ بالمدينة شيخ اعجمي اللسان يسمى (ينير) وكان مقدما عند القضاة مقبول الشهادة مشهورا في العامة بالخير وحسن المذهب فارسل فيه الوزراء وسالوه عن القاضي فقال بالعجمية ، ما اعرفه الا انني سمعت الناس يقولون انه انسان سوء ، باللفظ العجمي فلما رفع قوله الى الامير رحمه الله عجب من لفظه وقال : ما اخرج هذا الكلمة من هذا الرجل الصالح الا الصدق فعزله عن القضاء حينئذ).

ان هذا النص ليدل بوضوح على شيوع لغة الرومانثي بين سكان قرطبة ، والا فكيف يشهر بالخير بين العامة وبحسن المذهب اعجمي كهذا ان لم يكونوا يتعاملون معه بلغته التي لايعرف غيرها ؟ ثم ان لغته هذه يفهمها الوزراء ، ويفهمها الامير الاموي نفسه ويتذوق ما فيها من اساليب تعبيرية توحي بصدق من يستعملها . .

وهناك روايات اخرى تؤكد هذه الحقيقة منها ما يشير الى ان عمر بن حفصون وقواده في ثورته كانوا يتكلمون الرومانثية وفيها ما يدل انه في مجالس عبد الرحمن الناصر (القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي) كانت تدور بعض التعابير باللغة الرومانثية كان هو وندماؤه يفهمونها ، وفي مسجد قرطبة الجامع ، وفي القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي كانت تسمع ، في بعض الاحيان اللغة الرومانثية يتكلم بها الفقهاء انفسهم ، ولاسيما حين يسخطون ، وعندنا في ديوان ابن قزمان (٤٦٠ ــ ٥٥٤ هـ) ادلة لا سبيل الى نقضها، ففيه الكثير من الابيات الزجلية و ردت فيها اللُغتان العاميتان اللتان كانتا شائعتين في الاندلس العربية الدارجة والرومانثية .

هذا الامتزاج العنصري والاختلاط اللغوي كان لهما بطبيعة الحال اثر عميق في تكوين الشخصية الاندلسية لا من حيث الصفات الجسمانية التي اختلطت فيهما السمرة العربية بالبياض الاوربي ، فحسب بل في الصفات العقلية والنفسية ايضا والشيء الذي اضفى على هذا النسيج الاجتماعي وحدة روحية وتماسكا عضويا هو الثقافة العربية الاصيلة والروح الاسلامي السمح ، فانهما بقايا الطابع المميز للاندلس طوال الحكم العربي هناك و لاتزال اثار تلك الروح العربية الاسلامية وحضارتها الرائعة هي التي تعطي لاسبانيا بعامة ولقسمها الجنوبي الذي لايزال يعرف بالاندس ، بخاصة شخصية ذات طابع خاص يميزها عن بقية الامم الاوربية .

أغراض الشعر الاندلسي وخصائصه :

نظم شعراء الاندلس الشعر في مختلف الاغراض ولم يشذوا بوجه عام عن القواعد والاساليب التي اتبعها المشارقة في اشعارهم :

المدح :

فقد حافظ المدح على الاسلوب القديم وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص وربما جعلوا صدور مدائحهم وصفا للخمر او الطبيعة او البلد الذي نشأ الشاعر فيه او المرأة التي احبها، وقلما شذ بعضهم عن السبيل كما وصفوا الفلاة والناقة والجواد، و وقفوا على الديار والاطلال ولكنهم لم يطيلوا وصفهم هذا ويستفيضوا به، ولم يغرقوا في استعمال الغريب الا ما كان من ابن هانيء فقد تعمد الغريب واكثر المغالاة محاولا تقليد المتنبي ، وكانت مدائحهم محشوة بالتملق والاستجداء على طريقة المشارقة .

قال ابن زيدون يمدح بني جهور :

اجل ان ليلى حيث احياؤها الأُسْـــد[1] ... مـهاة حمتـها فـي مراتعـها أُسْـدُ
يمانيـة تدنـو وينـــأى مزارهـــا ... فـيان منها في الهوى القرب والبعـدُ
تحول رمـــاح الخـط دون اعتيادهـا ... وخيل تمطـى نحـو غاياتـها جـردُ
ولولا السراة الصيد مـــن ال جـهور ... لأعوز من يعدي عليـة متـى يعـدو
ملوك لبســنا الدهـر فـي جنباتـهم ... رقيق الحواشي مظلما فوف الـبردُ[2]
هم النفـر البيـض الذيـن وجوهـهم ... تروق فتستشفى بـها الأعيـن الرمـد
كـرام يمـد الراغبـــون اكفـيهم ... الى ابحر منـهم لـها بالنـدى مـدُ[3]
فلا ينـع منـهم هـالك فـهو خـالد ... بثـاره ان الثنـاء هـــو الخلـد
اليس ابو الحزم الـذي غـب سـعيه ... تيسـر غاوينـا لـــه الرشـد

الرثاء :

وكذلك في الرثاء لم يختلف الاندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت و وصف المصيبة وتعداد المناقب فكانت معانيهم واساليبهم متشابهة وكانوا يستهلون مراثيهم بالحكم كما لمشارقة ، الا ان حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها وتركز على الشكوى من الايام .

---

(١) الاسد : قبيلة يمنية وهي الازد .
(٢) فوف : رفق ، البرد : الثوب
(٣) الندا : جمع ندوة : العطايا

فاسال – بلنسية ما شأن (مرسيه) ... واين (شاطبة)ام ايلن (جيان)(١)
واين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قذسما فيها له شان
قواعد كن اركان البلاد فما ... عسى البقاء اذا لم تبق اركان
تبكي الحنيفية البيضاء من اسف ... كما بكى لفراق الالف هيمان (٢)
على ديار من الاسلام خالية ... قد اقفرت ولنها بالكفر عمران (٣)
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
ياغافلا وله في الدهر موعظة ... ان كنت في سنة فالدهر يقظان(٤)

ويتصل بالرثاء الشكوى والاستعطاف وقد امتاز بهذا الغرض الملوك والامراء لكثرة ما نالهم من المحن والنكبات فذلوا بعد عز وهبطوا بعد رفعة ، وقد راينا نوعا من هذه الشكوى في شعر المعتمد بن عباد بعد ان نكب ونفي الى اغمات في افريقا قال المعتمد بن عباد يخاطب قيده :

قيدي اما تعلمني مسلما ... ابيت ان تشفق او ترحما
دمي شراب لك واللحم قد ... اكلته لا تهشم الاعظما
يبصرني فيك ابو هاشم ... فينثني القلب وقد هشما(٥)
ارحم طفيلا طائشا لبه ... لم يخش ان ياتيك مسترحما
وارحم اخيات له مثله ... جرعتهن السم و العلقما

وقال :

اغريب بارض المغربين اسير ... سيبكي عليه منبر وسرير
ويتندبه البيض والصوارم والقنا ... وينهل دمع بينهن غزير
اذا قيل في اغمات قدمات جوده ... فما يرتجى للجود بعد نشور

(١) بلنسة ، مرسيه ، شاطبة ، جيان ، اسماء مدن اندلسية احتلها الاعداء .
(٢) هيمان : محب شديد الوجد ، الاف ، الحبيب ، الاخ ، الخليل .
(٣) اقفرت :
(٤) السنة : النعاس ، الغفلة ، الاغفاءة القصيرة .
(٥) ابو هاشم : ابن صغير للمعتمد بن عباد .

الهجـــــاء :

اما الهجاء فلم تقم له سوق رائجة في الاندلس و لاسيما الهجاء السياســي ، لقلــة الاحــزاب السياسية وقد ظهر في عهد الامراء هجاء بين المضرية واليمانية ولكن لم يحفظ لنا منه شــيء جدير بالاهتمام ، وقد قام بعض الشعراء بهجو الفرنجة اثناء الحروب معهم وهجوا الــبرابرة عندما استفحل امرهم وكانت الغاية من الهجاء التكسب والمجون فلم يكن هناك هجاء سياســي بالمعنى المعروف عند المشارقة كالدفاع عن العرب وذم الشعوبية والشعوبية لم يكن لها الشان في الاندلس ، وهذا الهجاء العابث كان مشحونا بالافذاع والفحش ، وعلى الجملة فان الشــعراء الذين مارسوا هذا الغرض لم يبلغوا فيه شان المشارقة واشهر من عرف بهذا الفن ابــو بكــر المخزومي الاعمى وهو من شعراء المائة الخامسة للهجرة وبينه وبين نزهون بنت القلاعــي الغرناطية معابثات فاحشة قال فيها المخزومي :

على وجه نزهون من الحزن مسحة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا

فاجابته :

ان كــان مــا قلــت حقــا ... مــن بعــض عــهد كريــم
فصــار ذكــري ذميمــا ... يعــزى الــى كــل لــوم
وصــرت اقبــح شــيء ... فــي صــورة المخزومــي

الحكمـــة :

وكذلك الامر في الحكمة فقد ذكرنا ان الشعراء الاندلسيين لم ينصرفوا الى حياة التامل لذلــك بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق وكذلك الفلسفة لم تشر في تلك الربوع منذ دخول العرب اليها ، بل تاخر ظهور الفلاسفة الى اواخر القرن الخامس في عصر المرابطين والموحدين فقد كان هذا العصر عصر نهضة في الفلسفة والتاليف فيه ظهر ابن باجة وابن رشد وابن طفيــل صاحب رسالة (حي بن يقظان) وابن ميمون من الفلاســفة وابــن خاقــان وابــن بشــكوال والادريسي وابن جبير وابن بسام من المؤلفين ولولا ابن حزم قبل رجال هذه الطبقة لقلنــا ان هذا العصر احتكر العلم والفلسفة وسبب تاخر نهضة الفلسفة في الاندلس واقتصارها على فئة محدودة من المختصين ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الاندلس فانهم ضيقــوا حربــة التفكير وكفروا كل متفلسف وافتوا بتفيه واحراق كتبه وكانت العامة تجاري اهــواء الفقــهاء فيضطر السلطان تجاه ثوراتهم الى استرضائهم باتلاف كتب الفلاسفة كمــا فعــل الحــاجب المنصور وبمعاقبة المتهمين كما فعل صاحب اشبيلية بابن هانئ اذ نصح له بالابتعــاد عــن المدينة كما ذكرنا .

ويبدو ان ابن هاني كان اكثر الشعراء الاندلسيين اهتماما بالحكمة في شعره محـــاولا بذلك تقليد المتنبي ولكنه بقي مقصرا عنه اشواطا ، وحكمته تدور حول شكوى الدهر والتحذير من الدنيا ، فكانت كحكمة غيره من الشعراء مبتذلة بعيدة عن النضج .

فمن قوله في قصيدة يرثي بها ولدا لابراهيم بن جعفر بن علي احد ممدوحيه :

وهب الدهر نفيسا فاسترد ... ربما جاد بخيل فحسد
كلما اعطى فوفى حاجة ... بيد شئنا تلقاه بيد
خاب من يرجو زمانا دائما ... تعرف الباساة منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نما ... واذا ما طيب الزاد نفد
فلقد اذكر من كان سها ... ولقد نبه من كان رقد

الزهـــد :

واذا كانت الحكمة ضئيلة جافة في الشعر الاندلسي ، فلم يكن الزهد كذلك ، وقد كان لسلطة الفقهاء تاثير في دفع الناس الى التعصب الديني ، والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدنيا ومباهجها حتى كثر المتزهدون واصبحت صناعة الزهد شيئا مرغوبا فكان الشعراء ينضمونه بدافع ديني احيانا ،على ان من الشعراء من نظمه وقد شعر حقا بندمه وادرك غرور الدنيا فاخذ يذكر ذنوبه طالبا مرضاة الله وعفوه ، وهذه ظاهرة طبيعية لكل انسان انغمس في الملذات اذ لابد له من ساعات ندم يخلد فيها الى نفسه ، ومثال ابي نواس شاهد على ذلك في توبته الاخيرة .

على ان كثرة الحروب والفتن وتقلب الاحوال اثرت في نفوس الشعراء فمالوا الى الطعن بغدر الايام وغرور الزمن ، وقادهم هذا الموقف الى لون من الشعر الشاكي الذي انتهى بهم الى الزهد والتقشف وذكر الله ، فلنسمع ابن عبد ربه وهو يصف الدنيا بانها دار الفجائع والمصائب :

الا انما الدنيا غضارة ايكه ... اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الامال الا فجائع ... عليها ولا اللذات الا مصائب
فكم سخنت بالامس عينا قريرة ... وقرت عيونا دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة ... على ذاهب منها فانك ذاهب

ولنسمع ابن حمديس يبكي ذنوبه ، فنجد في هذا البكاء برما بالحياة ونظرة خاشعة الى الله تتمثل فيها سمات الشعر الزهدي بشكل عام :

يا ذنوبي تقلصت والله ظهري ... بأن عذري فكيف يقبل عذري
كلما تبت ساعة عدت اخرى ... لضروب من سوء فعلي وهجري
دب موت السكون في حركاتي ... وخبا في رماده حر جمري
يا رفيقا بعبده ومحيطا ... علمه باختلاف سري وجهري
مل بقلبي الى صلاح فسادي ... منه واجبر برافة منك كسري
واجرني بما جناه لساني ... وتناجت به وساوس فكري

التصوف :

والزهد هو السلم الطبيعي الى التصوف والاشراق، بأن انه اول درجات التصوف، وقد نشأت في الاندلس مدرسة التصوف الكبرى في الاسلام وعلى راسها محي الدين بن عربي[1] ، غير ان استاذ ابن عربي كان الشيخ ابا عبد الله الغزال رئيس المتصوفة في المرية على عهد الموحدين ، والشيخ ابو عبد الله تلميذ الزاهد ابي العباس بن العريف الذي يذكر في المصادر التاريخية دائما بلقب ولي الله او العارف بالله، وابن العريف يعتبر راس الصوفية في الاندلس والمغرب، الف كتاب (محاسن المجالس) ضمنه اصول طريقته الصوفية التي تركز فكرتها في الزهد عن كل شيء ما عدا اله ، وكان لهذه الطريقة اثر واضح في الطريقة الشاذلية ، وقد عاش ابن العريف في المرية ثم بعث به علي بن يوسف ناشفين الى مراكش حيث توفي فيها سنة ٥٣٦هـ .

والشيخ ابو العباس بن العريف اول من قال الشعر الذي يحمل السمات الصوفية الشفافة مع مزج بين اسلوب العالم واشراقة الواصل ورموز (اهل الطريق) فقد سبقه الى ذلك الفقيه ابو عمر احمد بن عيسى الاليبري ينحو قرن من الزمان حين عمد الى اسلوب المناجاة الصوفي الخالص سالكا سبيل اهل الطريق تاملا وتشوقا وسكرا وفناء وكشفا وحنينا وانينا وارتياحا فيقول :

شربت بكاس الحب من جوهر الحب ... رحيقا بكف العقل في روضة القلب
وخامر ماء الروح فاهتزت القوى ... قوى النفس شوقا وارتياحا الى الرب
ونادى حنينا بالانين حنينها ... الهي الهي من لعبدك بالقرب
فخاطبه وحيا اليه مليكه ... سأكشف يا عبدي لعينك عن حجبي

[1] ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ وانتقل الى اشبيلية ثم سافر الى الشرق ومات في دمشق سنة ٦٣٨هـ .

٥ فأعلن بالتسبيح مثلك لم اجد تعاليت عن كفؤ يكافيك او صحب
٦ اجول ببعضي فوق بعضي كأنني ببعضي لبعضي كالنجائب والركب
٧ فخذ بزمام الشوق مني تعطفا اليك و لاتسلم زمامي الى لبي
لعلي أسقى ثم أسقاه دائما رحيقا بكف العقل من جوهر الحب

الشعر الحماسي :

واذا كانت الشعر الزهدي قد دعت اليه ظروف الشعراء و واقعهم فلم يكن الامر كذلك فيما يختص بشعر الحماسة ،فقد كان شعراء الاندلس بعدين عن ان يعشيوا عيشة الابطال والفرسان لذلك اقتصر شعرهم الحماسي في مدح الملوك و وصف معاركهم الحربية وكانوا بذلك شعراء مصورين لا شعراء مغاوير يعبرون عما يجيش في نفوسهم ولهذا فقد كان المدح غاية في الشعر الحماسي ولم يرتفع من اجل هذا شانه عندهم ،وبقي الدافع اليه التكلف لا العاطفة وقد كنا نامل ان تنفخ فيهم غارات الاعداء روح الحماسة ولكن اكثرهم و لاسيما شعراء ملوك الطوائف فضلوا ان يخلدوا الى شعر الضعف والشكوى والبكاء ولعل نفسية الشاعر الاندلسي الوادعة المستسلمة لاحلام الطبيعة والرخاء تلائم هذا النوع من الشعر اكثر من ملائمتها للشعر الصاخب القوي الذي امتاز به شعراء المشرق ولا شك ان للظروف الاقليمية اثرا في هذا الاتجاه الذي اضعف فيهم روح الحماسة وقلل من حدة البداوة فرأينا الفخر قد قل في شعرهم ،وعندما يظهر نراه يصطبغ في اكثر الاحيان بصبغة دينية لتعلق الشاعر الاندلسي بأسلامه ولما بينه وبين جيرانه النصارى من العداء اما صفات البطولة والشجاعة فكانت تاتي على شقاههم متكلفة مصطنعة لفقدان الشعور الصميم بانهم يتحلون بها كما في حماسيات ابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد وقد توفي هذا الشاعر كما يظهر في النصف الاول من القرون السادس الهجري .

الوصف و شعر الطبيعة والعمران :

اما الشعر الوصفي فقد ظهر في اكثر اغراض الشعر ،واظهر الاندلسيون فيه عبقرية نادرة لاسيما عندما تعرضوا الى وصف الطبيعة وجمال العمران ومجالس الانس والطرب ،نعم لم يظهر الوصف في الشعر العربي كغرض مستقل وانما رأيناه خلال المدح والغزل وغيرهما من الاغراض ولكننا نستطيع ان نقول ان اهتمام الاندلسيين بالوصف كان كبيرا ، على الرغم من امتزاجه في اكثر الاغراض الشعرية فقد استطاع الاندلسيون ان يتفننوا به ويمنحوه بعض الاستقلال فهناك شعر وصفي لجميع مظاهر الحياة الحضرية الهائلة من وصف لمجالس اللهو والغناء والرقص والشراب والته والصيد وادواته والنساء واحوالهن

وهناك شعر وصفي للطبيعة ولمظاهر العمران والقصور وهناك شعر وصفي للحروب والسلاح والسفن وغير ذلك مما يتناول الحياة برخائها وحربها بطبيعتها الجميلة التي من بها الله وبقصورها وساحتها المرمرية التي زخرفتها يد الانسان . .

و لاعجب في ان يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر الاندلسي فان الحروب بين المسلمين واعدائهم الفرنجة لم تنقطع ولم تهدأ حرب الا لتشن اخرى لهذا حفلت مدائح الملوك والامراء بذكر المعارك والجيوش والحراقات وقد راينا نموذجا من هذا الوصف في قصيدة ابن هانيء الاندلسي الذي يمدح بها المعز لدين الله الفاطمي ويصف حراقاته .

وصف الطبيعة :

اما شعر الطبيعة فهو ابداع اشعارهم، وقد كان لجمال الاندلس اثر في مد مخيلتهم بالاوصاف الجميلة وخلق هذا الشوق الشعري والحس الطبيعي في نفوسهم ، وقد شعر ابن خفاجة زعيم شعراء الطبيعة ، بهذا الجمال ورأى في الاندلس جنة الله في ارضه فقال :

يا اهل اندلس لله دركم ماء وظل وانهار وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت هذي كنت اختار
لا تختشوا بعدها ان تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وقد ملكت معاني هذا الجمال نفوسهم واستحدثت قرائح الشعراء فكان لهذا العامل الطبيعي وما احدثته المدينة والسعة من منشات في جر المياه وبناء البرك في الشعر الاندلسي ظهر في اكثر ابوابه فاغناه ونرى ان الطبيعة كانت على السنة اكثر الشعراء في جميع ابواب الشعر و لاسيما في الغزل حتى لقد قال المقري عن شعراء الاندلس انهم (اذا تغزلوا صاغوا من الورد خدودا ومن النرجس عيونا ومن الاس اصداغا ومن السفرجل نهودا ومن قصب السكر قدودا ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رضابا) وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة وبين الطبيعة فلا تذكر المرأة الا ذكرت الطبيعة ، وتستطيع ان نقول ان الشعر الاندلسي هو أغنى شعر عربي من حيث وصف الرياض والزهور والجداول والامطار وكثيرا ما يلجا الشاعر الى مناجاة تجري في الروض او الى تشخيص الطبيعة كما فعل لسان الدين بن الخطيب في موشحته التي عارض بها ابن سهل :

هل درى ضبي الحمى ان قد حمى قلب صب حله عن مكنس

والتي مطلعها :

جادك الغيث اذا الغيث همى يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس

ففي هذه الموشحة يجلل الحيا الروض فتبتسم ثغور الزهور ويتناجى الماء والحصى فيغار الورد ويحمر حنقا ويتنبه الاس فيسرق السمع ليفهم سر المناجاة.

وهكذا فالطبيعة والشاعر الفنان لا يفترقان واذا تغزل الشاعر عنت له ايام اللقاء بالاندلس فيذكر موضع اللقاء الذي ضم حبه وفي هذا الذكر اتصال بالطبيعة كأن ذكر الطبيعة ومواطن اللقاء يعينان على بيان حرقة الشاعر نحو من يحب وهو يقترب من بعض الشعراء الرومانتيكين الذين كانوا يهتمون بوصف خلواتهم في الطبيعة الا ان الشاعر العربي هنا يهتم بالاوصاف الحسية اكثر من اهتمامه بالمناجاة الشعرية فلنسمع ابن زيدون يذكر ولادة وهو بالزهراء وهي في قرطبة :

أني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والافق طلق و وجه الارض قد رقا
وللنسيم اعتلال في اصائله ... كأنما رق لي فباعث اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما شققت عن اللبات اطواقا
يوم كايام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... وجال الندى فيه حتى مال اعناقا
كان اعينه اذ عاينت ارقي ... بكت لما بي فجال الدمع رفراقا
ورد تألق في ضاحي منابته ... فأزداد منه الضحى في العين اشراقا

هذا ولا يمكننا ان نقول ان شعراء الاندلس قد اتحدوا مع الطبيعة اتحادا تاما و وصفوا اختلاجات نفوسهم نحوها على طريقة المفهوم الرومانتيكي وشعرائه الابداعيين الذين احسوا بالطبيعة احساسا نفسيا عميقا لان الغالب على شعر الاندلسيين هو الاهتمام بتصويرها وتشخصيها وبيان الناحية الضاحكة منها لذلك فقد انصرفوا عن ذكر عواطفهم وتجاوبها مع الطبيعة حتى ان ابن خفاجة وهو اشعر من وصف الطبيعة عندهم لم يستطيع ان يشترك في هذا التجاوب وفي هذا الحس الطبيعي الا بقصيدته في وصف الجبل فبدأ شاعرا على طريقة شعراء الابداعية ، اما باقي شعره في الطبيعة فكان شغفا بمحاسنها و وصفا حسيا لمباهجها يعينه الخيال وتزينه الصور البيانية والبديعة واليكم ما يقوله في وصف النهر :

لله نهر سال في بطحاء ... اشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا ... من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنه ... هدب تحف بمقلة زرقاء
والماء اسرع جريه متحدرا ... متلويا كالحية الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الاصيل على لجين الماء

ويتصل بذكر الطبيعة تلك المصوفات الصناعية التي تحيط بـــها القصـــور والسبرك والزخارف وابن جمد يس هو احد اولئك الشعراء الذين جمعوا بين وصف الطبيعة الطبيعية و الطبيعة الصناعية ان صح التعبير وقد كان هذا الشاعر عندما ينطلق من قيود همومه واحزانه يعكف على الطبيعة ويمتع عينيه بجمالها فيتحدث عن النهر والزهر والليل والصيد والقصـــر والبركة ومجلس الطرب واللذة ،فلنسمعه يصف بركة في قصر ابتناه المنصور بن اعلى الناس ببجاية وعلى هذه البركة اشجار من الذهب والفضة واسود من المرمر يخرج من افواهها الماء كما يخرج من اطراف تلك الاشجار فيسمع لها خرير وصفير وهو في وصفـــه هـــذا دقيـــق التفاصيل انيق اللفظ واضح الفكرة ولكنه جامد ضعيف الايحاء قال :

وضراغم سكنت عرين رئاسة	تركت مثرير الماء فيه زئيرا
فكانما غشي النضـــار جسومها	واذاب فـي افواهـها البلـــورا
اســد كـــان ســكوتها متحـــرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكـــرت فتكاتـــها فكانمـــا	اقعت علـــى ابارهـــا لتثـــورا
وتخالها والشمس تجلـــوا لونـــها	نارا والسنها اللواحـــس نـــورا
فكانما ســـلت سيوف جـداول	ذابت بلا نـــار فعـدن غديـــرا
وكانمـــا نســـج النسـيم لمائـــه	درعا فقـــدر ســردها تقديـــرا

ونلاحظ ان هذا الوصف على الرغم من دقته بعيد عن ان نراه مشعا بـــروح الحيـــاة ونحن اكثر اعجابا بشعره الذي يشكو فيه الزمان ولؤم الانسان ويتبرم بالحياة ويدعو فيه الـــى الزهد على طريقة ابي العتاهية ،ومجمل القول ان شعراء الاندلس قد رسموا الطبيعة في جميع اشكالها ويطول بنا الامر ان تتبعنا صورها في مختلف اشعارهم فهي حديثهم فـــي مختلـــف اغراضهم .

الغزل ــ الخمر

واذا كانت الطبيعة لها المكان الاول بين اغراض الشعر الاندلسي فالغزل كان ينســـب على شفاه الشعراء ويدعو اليه كل ما في الاندلس من طبيعة جميلة وحياة حضريـــة ناعمـــة ومجالس انس ورخاء وخمر وغناء، كما ان اسواق النخاسة التي كان يبـــاع فيـــا الجـــواري والغلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التي وجد الغزل فيها مرتعا سهلا ، ومن الشعراء مـــن احب حبا صادقا ومنهم من تمتع بوهم الحب ولها ، وقد استطاع الشاعر الاندلسي ان يرســـم حبه ولهوه بابيات تعد من الشعر الجيد لانها استطاعت ان ترسم الاجواء وتعبر عن خوالـــج النفوس ، الا ان اكثر غزلهم كان مقيداً بالتقاليد والتكاليف ، ولم يستطيعوا ان يحلقوا في اجواء جديدة الا عندما استطاعوا ان يهجروا الاسلوب القديم كذكر البادية والاطـــلال فـــي سبيل

الوصول الى الحبيب ويتحدثوا عن حبهم ومجالسهم وخلواتهم في كثير من الانطلاق، الان ان هذا الحديث قد قادهم الى حرية مؤذية احيانا فيها الكثير من الفحش والتهتك وقد بلغ الغزل في زمن طوائف الملوك حالة مزرية في انحطاط الفاظه ومعانيه وعبر بذلك عن حياة العصر المتهتك .

وقد كانت اوصافهم مادية تقليدية فتحدثوا عن سهام الالحاظ وخمر الرضاب وليل الشعر ونرجس العيون وغير ذلك من الاوصاف المألوفة فظهر تقليدهم جليا ولم يجددوا المعاني فالمحب ذليل والمعشوقة لا ترحم ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب الذي تفنن الشعراء في وصفه فرحين بالتذلل للحبيب والخضوع له وقلما حدثنا الشاعر عن افراح الغرام فهو اذن في الم دائم ولعل اجمل ما في الغزل الاندلسي هو هذه النغمة المحزنة التي يبكي فيها الشاعر ايام سعادته بالقرب من الحبيب ويحن الى ايامه الافلة التي قضى الدهر ان تكون ذكرى لحب مقيم وهذه النغمة هي التي منحت قصيدة ابن زيدون في صاحبته ولادة هذه الشهرة حتى تناقلتها كتاب الادب ففي هذه القصيدة التي مطلعها

اضحى التنائي بديلا عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

لحن موسيقي ونجوى غرامية شاكية استطاع ابن زيدون ان يلحق بها في جو غزلي جميل كما سنرى عند الكلام على هذه القصيدة بشي من التفصيل .

هذا وقد بدت اثار البيئة على اشعار الاندلسيين الغزلية فشاع عندهم الغزل النصراني وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل ابن الحداد في نويرة النصرانية كما شاع عندهم التشبيب بالشعر الاشقر والعيون الزرق لكثرة ما كانوا يصيبون من سبي فرنجة الشمال وهم شقر في الغالب وكانت تشبيهاتهم مستمدة غالبا من الطبيعة كما ذكرنا ،ولكن كثيرا ما كان يظهر عليها التكلف والصنعة وخير اشعارهم الغزلية ما كانت مجردة عن هذا التكلف كما في قصيدة ابن زيدون السابقة الذكر .

شعر الغربة والحنين :

من الموضاعات الجديدة التي برزت في الشعر الاندلسي على نحو جديد وبانت شخصيتها على صورة مختلفة وذلك لتأثير البيئة الاندلسية من نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية وطبيعية ، فقد تألق هذا الموضوع على نحو فريد في القرن الخامس الهجري وان كنا نجد صورة مصغرة له قبل هذا العصر .

ويتجلى الشعور بالغربة والحنين الى الوطن في جملة اسباب منها :

الرحلة في طلب العلم على نحو ما كتب به ابن الفرضي (٤٠٣) وهو في طريقه الى المشرق وكان قد رحل وتغرب حيث يقول :

مضتْ لي شهورٌ منذ غبتم ثلاثةٌ ... وما خلتني ابقى اذا غبتم شهرا
سأستعتبُ الدهرَ المفرقَ بيننا ... وهل نافعي ان صرت استعتبُ الدهرا
وتالله ما فارقتكم عن قلى لكم ... ولكنها الاقدارُ تجرى كما تُجرى

ومنها الرحلة عن الوطن بسبب الحروب والفتن الداخلية التي حلت بمدن الاندلس وابرز هذه الفتن التي انعكست اثارها في الشعر الاندلسي الفتنة القرطبية على نحو ما تعكسه ابيات ابي بكر محمد بن القاسم (اشكيباط) الذي نشأ بقرطبة ثم اضطرته الحال الى مغادرتها والتجوال في مدن الاندلس ثم في بلاد المشرق فصور غربته ادق تصوير ونقلت ابياته معاناته نقلا دقيقا حيث يقول :

ابن اقصى الغرب من ارض حلب ... امل في الغرب موصول التعب
حنَّ من شوق الى اوطانه ... من جفاه صبرُه لما اغترب
جال في الارض لجاجا حائرا ... بين شوق وعناء ونصب
يا احباي اسمعوا بعض الذي ... يلقاه الطريد المغلغترب
وليكن زجرا لكم عن غربة ... يرجع الرأس لديها كالذنب
ولئن فاسيت ما قاسيته ... فبما ابصر لحظي من عجب

ومنها ولعلها اقوى عامل الغربة والحنين الحروب المستمرة بين المسلمين والاسبان وقد اتقدت جذوتها بعد سقوط طليطله (٤٧٨هـ) كبرى حواضر الاندلس وتحكي كتب التراجم صورة لاضطراب العلماء والشعراء في البلاد وضربهم في الافاق اثر سقوط المدن والشعور بالغربة خطوة تالية لسقوط المدينة والشاعر يستشعر هذا المعنى سيان ان غادرها او اقام فيها لانه في الحالين مدركه ضيم الاسبان وجورهم واذاهم .

وتستطيع ان نشخص اتجاهين مختلفين في هذا الموضوع (شعر الغربة والحنين) يمثلان طبيعة الحياة في الاندلس منذ الفتح حتى جلاء المسلمين عنها :

الاتجاه الاول : يمثل لنا شعراء في وطنهم الجديد بالاندلس حيث اقترنت ذكرياتهم بمدنهم و اوطانهم التي غادروها بعد فتح الاندلس فكانت معاني الغربة والحنين الى بلاد المشرق

وتمثل لنا اشعار عبد الرحمن الداخل وشعراء عصره هذا الاتجاه ، يقول عبد الرحمن الداخل متشوقا الى معاهده بالشام :

أيها الراكبُ الميممُ ارضي ... اقر مني بعض السلام لبعض
إن جسمي كما علمتَ بارضٍ ... وفؤادي ومالكيه بارض
قُدِّر البينُ بيننا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ومما قال منها على البديهة وكان ذلك اول نزوله منية الرصافة بقرطبة واتخاذه لها :

تبدتْ لنا وسط الرصافة نخلةٌ ... تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلتُ شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن اهلي
نشأتِ بارض انتِ فيها غريبة ... فمثلكِ في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقاكِ غوادي المُزن من صوبها الذي ... يسح ويستمري السماكين بالويل[1]

اما الاتجاه الثاني : فيمثل الشاعر الاندلسي الذي نشأ فيها وترعرع على ارضها فتعلق قلبه بحبها ثم دعته ظروف قاهرة ودواع تقدم الحديث عنها الى الرحلة عنها وتأتي هذه المرحلة في ضربين يتمثل اولهما في رحلة الشاعر الى بلاد المشرق والثاني فتمثله رحلة الشاعر من مدينته الى مدن اندلسية اخرى .

هذه نظرة سريعة القيناها على اهم الاغراض الشعرية ورسمت لنا صفات الشعر الاندلسي الاساسية، ولنقل ان هذا الشعر لا يتخلف كثيرا عن الشعر الشرقي بل لعله في مرتبته من حيث المعاني والصور الفكرية وقد نلاحظ انه قد كبل بالصنعة فاسف احيانا ولم تستطيع ان يفلت من هذا الاسفاف الا عندما اطلق الشاعر لقلبه حرية القول غير عابيء بقيود البيان والبديع على ان للشعر الاندلسي ميزة هي هذه الرقة الممزوجة بالجزالة وقد شعر الاندلسيون بهذه الظاهرة في ادبهم حين قال ابن بسام :

(ذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء)

ابن زيدون

حياته

ولد احمد بن عبد الله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤هـ /١٠٠٣ م في بيت من بيوت اعيانها وفقهائها ، فابوه فقيه من سلالة بني مخزوم القريشيين وجده لامه صاحب الاحكام الوزير أبو بكر محمد بن محمد بن ابراهيم وكلمة صاحب الاحكام تعني انه اشتغل بالفقه والقضاء ، فهو من بيت حسب ونسب وكان ابوه ثريا صاحب اموال وضياع ،وكان مرجعا

(١) منية الرصافة : متنزه الرصافة . تناءت : تباعدت .

للقضاة وموضع مشورتهم ، اهتم هذا الفقيه العظيم بأبنه منذ نعومة اظفاره فاحضر له الادباء والمثقفين و وصله بالعلماء والفقهاء من اصحابه وكان هو نفسه اول اساتذته اذ كان متفننا في ظروب العلم جم الرواية والمعرفة باللغة والادب على ان تلمذته له لم تطل فقد توفي وابنه في الحادية عشرة من عمره سنة ٤٠٥ هـ ، ومن المظنون ان ابن زيدون لزم صديق ابيه ابو العباس بن زاكون وافاد من علمه وفقهه فقد كان عالم قرطبة الاول في عصره ، ومن اساتذته المهمين ابو بكر مسلم بن احمد وكان نحويا اديبا متقدما في علم العربية واللغة و رواية الشعر ، ومما لاشك فيه ان عقل ابن زيدون ليس من صنع هؤلاء الثلاثة وحدهم بل هو من صنع قرطبة وجامعتها الكبيرة وما كان يلقي فيها من الدورس وضروب التعاليم اذا كان يختلف كغيره من شباب عصره الى العلماء والادباء هناك فينهل من معارفهم وثقافتهم .

كان عصر ابن زيدون حافلا بضروب الفتن والاضطرابات لم يسلم من لهيبها احد ، فلحق ابن زيدون اذى كثير وعناء كبير ودخل السجن وعرف التشريد والضياع والاختفاء حين فر من سجنه تحت اقسى الظروف مضطرا .

وابرز احداث حياته ، حبه لولاة ابنة المستكفي الاميرة العربية ابنة الخليفة قبل الاخير وهو المستكفي بالله جاء قبل المعتمد بالله اخر خلفاء بني امية قبل حلول عصر الطوائف بوسع الخلافة سنة (٤٠٤ هـ) واقصى عنها بعد سنتين بسبب الفتن التي اشرنا اليها ، وكان المستكفي واهنا متخلفا ضعيفا مقصرا عن خلال ابائه ويصفه ابو حيان مؤرخ الاندلس بانه (كان مجبولا على الجهالة عاطلا من كل خلة تدل على فضيلة معروفا بالتخلف والركاكة مشتهرا بالشرب والبطالة سقيم السر والعلانية)[1]

وفي بيت هذا الخليفة نبتت ولادة ويظهر ان اباها عنى بها فاحضر لها المعلمين والمثقفين فلم تلبث مواهبها ان استيقظت فتفتحت الزهرة التي نبتت في تلك الشجرة وفاح منها اريج الشعر والفن وبعد وفاة أبيها سنة ٤١٦هـ اصبح بيتها قبلة الادباء والشعراء يقول ابن بسام (وكان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار المصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشوا اهل الادب الى ضوء غرتها ويتهالك افذاذ الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، الى سهولة حجابها وكثرة منتابها)

وكان ابن زيدون اذكى الحضور ، واغزرهم اطلاعا على فروع المعرفة وكان يتفوق عليهم جميعا بموهبته الشعرية والادبية فكانت ولادة توليه كثيرا من اعجابها واهتمامها فترك هذا الاعجاب من ولادة اثرا سيئا في نفوس اقرانه وادباء عصره وبالاخص الوزير ابي عامر بن عبدوس ، فبدأ الخصوم يكيدون له المكائد ويرسمون له سبل الهلاك حتى استطاعوا ان

---

(١) الذخيرة : المجلد الاول ، ص٣٨٠ .

يدخلوه السجن بتهم ملفقة افتعلوها ، واوغروا عليه صدر الامير ابـــي الحـزم بـــن جـــهور (امير قرطبة) فتخلى عنه بعد تعلق وحب كبيرين فلم يناصره و لااستمع الـــى شـــكواه ممـــا اضطره الى الفرار من السجن في حدود عام (٤٣٣ هـــ) قاصدا اشبيلية في حمايـــة اميرهـــا المعتمد بن عباد ، فقربه وغمره بعطفه ومن هناك كتب قصيدته الخالدة :

اضحى التنائي بديلا من تدانينـــا ونأب عـــن طيـــب لقيانـــا تجافينـــا .

ولكن الشاعر عاد الى قرطبة سرا واختفى في (الزهراء) احد ضواحيها الجميلة وظـل مختبئا يراسل اعوانه حتى نجح في الحصول على الشفاعة ثم صادف ان اعلى الحكم الوليـد بن ابي الحزم بن جهور وكان من اصدقاء الشاعر فاعاده الى سابق عهده وزيرا ومستشـــارا و وجيها من اكبر وجهاء قرطبة الا ان الزمن يابى الا ان يقلب له ظهر المجن فرحل متقلبـــا في البلاد هاربا من شرور البلاد التي يكيدها له الاعداء قاصدا الامراء حتى التجا ثانية الـــى بني عباد في اشبيلية في ضيافة ملكها المعتضد بن عباد سنة (٤٤١ هـــ) ولكن الشاعر ابـــن زيدون بقي في رحلاته مخلصا لولادة يبعث اليها بشعر الحنين والشوق من منافيـــه البعيـــدة، وفي القوت نفسه بقي وزيرا وشاعرا للمعتضد الذي كان بلاطه يمـــوج بالشـــعراء والادبـــاء والعلماء ولما توفي الملك المعتضد خلفه المعتمد فحاول الخصوم والحاسدون هنا ايضا الايقاع به لكن المعتمد لم يعرهم سمعا وظل ابن زيدون اثيرا عنده ، ثم شاءت الظـــروف ان يحيـــق الاعداء بقرطبة فسمع ابن زيدون بذلك فنهض يدفعه وفاؤه لمدينته وذكرى ولادة فجعل يحـــث الملك المعتمد كي يناصر اهالي قرطبة ويساندهم بجيشه وتنجح اشبيلية في انقاذ قرطبة ولكـــن هذا الجيش الذي جاء منقذا لقرطبة استولى على مقاليد الامور فيها وطرد بني جهور من ســـدة الحكم وهكذا ضم بنو عباد قرطبة الى مملكة اشبيلية وهكذا يعود ابن زيدون الى وطنه لكـــن سخرية القدر اقوى هذه المرة فلم يلبث ابن زيدون ان مرض مرضا شديدا لم يمهله الا قليلا فمات في قرطبة مسقط راسه سنة (٤٦٣هـــ) دون ان نعرف شيئا عن اخباره مع ولادة التـــي اعرضت عنه ولم تلتفت اليه .

آثار ابن زيدون :

ترك ابن زيدون ديوانا فيه غرر شعره نشر اكثر من مرة في القاهرة وبيروت ، ولـــه رسالتان احداهما (الرسالة الهزلية) التي كتبها على لسان حبيبته ولادة الى غريمه في هواها الوزير احمد بن عبدوس تهزأ به و (الرسالة الجدية) التي كتبها اثناء وجوده فـــي الســـجن يستعطف ابا الحزم جهور صاحب قرطبة يساله العفو ويرجو اطلاق سراحه .

و(الرسالة الجدية) شرحها الصفدي المتوفى سنة ٧٦٢هـ (وطبعت مرات عدة ومن بينها طبعة بغداد سنة (١٣٢٧هـ) (تحت عنوان النثر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون).

اما (الرسالة الهزلية) فقد شرحها ابن نباته المصري المتوفي سنة (٧٦٨هـ) بعنوان (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) .

ان كلا من الرسالتين قد كتبت باسلوب مسجوع وعبارات منمقة مرتبة اخذت شكل النثر الفني لا تتفلت منه او تتحول عنه الا حيث يكون السجع صعب المركب فلا تواتي الجملة المسجوعة الكاتب بما يهدف اليه من معنى ..

وكل من الرسالة الهزلية والجدية غنية بالاعلام والامثال والوقائع التاريخية والاشعار المقتبسة ، ان جدا فجد وان هزلا فهزل الامر الذي يدل على وفرة ثقافة الكاتب وكثرة محفوظة وسعة اطلاعه وبراعة استشهاده بحيث احتاجت كل رسالة لكي يفهمها القاري الى شرح وتعليق وتعريف باعلامها وما ذكر خلالها من احداث وامثال واشعار واخبار .

ومن روائع ابن زيدون الشعرية قصيدة بعنوان (ذكرى ولادة) كتبها اليها بعد خروجه من سجنه وقبل العفو عنه اذ الم بالزهراء ضاحية قرطبة الفاتنة بمناظرها الطبيعية فلم يكد يرتادها وقد خلع عليها الربيع حلله ونثر فيها زهره و ورده وطيره حتى تشوق الى حبيبته وتلهف على لقائها فناجاها من بعيد :

أني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والافق طلق و وجه الارض قد راقا

وللنسيم اعتلال في اصائله ... كأنما رق لي فاعتل اشفاقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما شققت عن اللبات اطواقا

يوم كايام لذات لنا انصرمت ... بتنا اليها حين نام الدهر سراقا

نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال اعناقا

كان اعينه اذ عاينت ارقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

ورد تالق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين اشراقا

سرى ينافحه نيلوفر عبق ... وسنان نبه الصبح منه احداقا

كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقا

لا سكن الله قلبا عن ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى ... وافاكم بفتى اضناه ما لاقى

لو كان وفي المنى في جمعنا بكم ... لكن من اكرم الايام اخلاقا

كان التجاري بمحض الود مذ زمن ... ميدان انس جرينا فيه اطلاقا

فالان احمد ما كنا لعهدكم ... سلوتم وبقينا نحن عشاقا

يقول الدكتور شوقي ضيف معلقا على النص (و واضح ما تموج به هذه المناجاة من مختلف المشاعر ومتنوع الخواطر فهو محب قلق بين الياس والرجاء وهو ينظر في الطبيعة حوله ومباهج الربيع فيشعر كان كل شيء يشاركه في همومه و لانبالغ اذا قلنا ان هذه المقطوعة تجربة نفسية كاملة للشاعر على قلة ما نجد من ذلك في شعرنا العربي فالشاعر يعطينا المه وحزنه المشتعل الذي لايسكن ولايهدأ فقد تحول كل ما فيه الى جذوة للحب تتقد وتستعر ، ولم يملك من دنياه الا دموعه و الا زفراته وانها لتكاد تحرق ضلوعه .

وجاء في تعليق الدكتور سيد نوفل على القصيدة في كتابه : شعر الطبيعة في الادب العربي (انها قصيدة تموج فيها عاطفتان عاطفة الماضي الجميل تكسبه الطبيعة الحلوة مزيدا من الحسن وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوبا من القتامة والكآبة والشاعر اذا تحدث عن الماضي ابتسمت الطبيعة من طلاقة الافق وصفاء وجه الارض وابتسام الروض وطرب الزهر وتالق الورد واشراق الضحى واذا تحدث عن الحاضر حزنت الطبيعة له في اعتلال النسيم واشفاقة وبكاء الزهر وجولان دمعه الرقراق ونعاس النيلوفر ، وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التي يذكيها جو الذكرى باعثا في النفس لحنا من الاسى والاشفاق والصدى العميق [1].

ومن روائع ابن زيدون الشعرية الخالدة نونيته النادرة المثال والتي نظمها بعد خروجه من السجن وقبل صدور العفو عنه يعبر فيها عن حنينه وشوقه لرؤية حبيبته ولادة ويذكرها انه لايزال وفيا بعد هجرها ويتحدث حديث المتاع عن ايام وصلها الذي لايستطيع ان ينساه فيقول :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ... ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوارحنا ... شوقا اليكم و لاجفت ماقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرها ... يقضي علينا الاسى لولا تاسينا

حالت لفقدكم ايامنا فعدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

اذ جانب العيش طلق من تالفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا

واذ هصرنا غصون الوصل دانية ... قطوفها فجنينا منه ما شئينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لارواحنا الا رياحينا

لا تحسبوا نايكم عنا يغيرنا ... ان ظالما غير الفاي المحبينا

والله ما طلبت اهواؤهنا بدلا ... منكم و لانصرفت عنكم امانينا

يا ساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا

(١) شعر الطبيعة في الادب العربي ، د. سيد نوفل ، ص٢ .

واسال هنالك هـــل عنـــي تذكرنـــا الفـــا تذكـــره امســـي يعنينـــا[1]

ويـــا نســـيم الصبـــا بلـــغ تحيتنـــا من لو على البعد حيـــا كـــان يحيينـــا

شاعريته (خصائص شعره) :

يقف ابن زيدون في الذورة بين شعراء الاندلس من حيث ملكات التعبير الادبي ومـــا صاحبها من ابداع فني ، وقد اشاد به كل من تحدثوا عنه او ترجموا له من السابقين وخاصـــة ابن بسام في الذخيرة اذ يقول (له شعر ليس للسحر بيانه و لا للنجوم الزهر اقترانـــه) وقـــد تعاقب الكتاب يثنون على جمال ديباجته ورونق اساليبه فالجميع مشدوه لروعة نظمـــه وشـــدة اسره .

وقد طبع ابن زيدون فنه بالطوابع العربية الاصيلة فقد اخذ نفسه على ما يظهر بثقافته واسعة للشعر الذي سبقه من العصر الجاهلي الى عصره ولم يدخر وسعا في قراءة دواوينـــه والوقوف على اسراره .

وليس في موسيقاه والحانه أي شائبة انما فيهما الخفة والرشاقة ولذا كـــانوا يشـــبهونه بالبحتري بل كانوا يسمونه (بحتري المغرب) لسلاسة شعره وانســـيابه كأنـــه المـــاء العـــذب السلسبيل .

وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعاني القديمة او الموروثة فـــي حلـــه اندلسية جديدة فيها جمال الفن وبهجة الشعر وما يفصح عن اصالته وشخصيته ، وهو من خير النماذج التي تكشف لنا المنزعين، فهو لايخرج في شعره على القواعد الموروثة وفي الوقـــت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان فيه من حضارة وترف ياذج واغراق فـــي الحـــس والخمر واللذة فاتصاله بالماضي لم يحل بينه وبين تصوير الحاضر الذي عاش فيه .

واكبر الظن اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان ابن زيدون هو اهم شاعر وجداني ظهر في الاندلس فهو استاذ هذا الفن هناك اذ كان اول من اعتصر فؤاده شعرا عذبا فيه جوى وحرقـــة وهوى ولوعة وعلى نحو ما اعتصر فؤاده اعتصر اللغة نفسها واستخرج منها كل ممكناتـــها الموسيقية ليشدوا الحانه المشجية التي ملكت على العرب البابهم في عصورهم القديمة والحديثة ، حتى جعل كبار شعرائهم من همهم ان يعارضوا بعض قصيده كي يظفروا ببعض نغمـــه ، فعارضه صفي الدين الحلي والصفدي واخيرا احمد شوقي في نونيته الاندلسية ، اذا صاغـــه على نمط نونيته (اضحى التنائي بديلا من تدانينا . . . . .)

(١ (غاد : باكر (اذهب مبكرا)

ابن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣هـ)

هو ابو اسحاق ابراهيم بن ابي الفتح عبد الله بن خفاجة الهوازي الشقوري ، ولد في جزيرة شقر ، وهي بليدة بين شاطبه وبلنسيه سنة (٤٥٠هـ) في اسرة علي جانب من اليسار وعلى قسط من العلم والادب ، بدأ عمله في بلده ثم تردد بين مرسيه وشاطبه فسمع من العلماء فيهما .

يحيط ابن خفاجة بعدد من فنون المعرفة منها الحديث والفقه واللغة والنحو وغيرها ولكن غلب عليه نظم الشعر ،وهو شاعر وجداني مطبوع على شعره طلاوة وفيه سهولة ، وهو عذب الجرس تشيع فيه رنه موسيقية قل ان تجد مثلها عند شاعر اخر ثم هو على النهج المشرقي ما فارق عمود الشعر قط ، وربما حاول في القصيدة بعد ان يلقي على ابياه من فخامة الشعر القديم وفنون شعره المدح (اعجابا بممدوحيه لا تكسبا منهم) والرثاء والغزل والنسيب والهجاء (وربما افحش فيه) والعتاب والحكمة والزهد والاخوانيات ، اما الفن الذي برع فيه فهو وصف الطبيعة والحنين الى الوطن ، وهو بارع جدا في وصف الاشجار والازهار والانهار حتى سمي (الجنان) لكثرة اوصافه للحدائق والجنائن وبراعته في تلك

(١) طمى الماء : ارتفع وملأ النهر ، العباب : عباب البحر : موجه .

(٢) مارج : شعلة شديدة اللهيب ، القصير : السحاب المتراكم .

الاوصاف)واسموه (بصنوبري الاندلس) تشبيها له بابي بكر الصنوبري شاعر الطبيعة في المشرق العربي ولابن خفاجة نثر دون شعره مرتبه بصرفه في بعض اغراض نفسه في رسائل اخوانية او في اغراض تتعلق بعدد من قصائده وقد جمع ابن خفاجة شعره ونثره في ديوان قدم له بمقدمه اشار فيها الى رايه في الشعر وفي شعره ونثره .

والقاري لبعض شعره الذي يصف فيه الطبيعة يرى فيه نفحة جديدة هي هذه المشاركة في العواطف التي يشعر بها المتامل لسحر مناظر الطبيعة ، وما يعتريه من زهبة او طرب او اعجاب ولهذا نستطيع ان نسجل لابن خفاجة ميزة مناجاته الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم وقد ظهرت هذه المزيه جلية في وصفه الجبل عندما حاول ان يشرك النفس الانسانية بسر الطبيعة ويدرك بعض الادراك ما يسمى عند الغربيين بحس الطبيعة .

قال ابن خفاجة يصف جبلا ، الديوان ، ص ١٥٠ :

وصهوة عزم قد تمطيت والدجى ... مكب كأن الصبح في صدره سرُ (١)
وقد الحفتني شمله الطل شمال ... يقلقل احشاء الاراك بنها ذعرُ (٢)
وشق الدجى نقط من النجم مرسل ... ترامى من الليل البهيم به فجرُ
واشرف طماح الذوابة شامخ ... تنطق بالجوزاء ليلا له خصرُ (٣)
وقور على مر الليالي كانما ... يصيخ الى نجوى وفي اذنه وقرُ (٤)
تمهد منه كل ركن ركانه ... فقطب اطراقا وقد ضحك البدر (٥)
ولاذ به نسر السماء كانما ... يحن الى وكر به ذلك النسر
فلم ادر من صمت له وسكينة ... اكبرة سن وقرت منه ام كبر (٦)

وقال يصف نهرا :

لله نهر سال في بطحاء ... اشهى ورودا من لمى الحسناء (٧)
متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجر سماء (١)

---

(١) الصهوة : معقد الفارس من الفرس ، تمطيت : التمطي : التبختر ومد اليدين في السير .
(٢) الحفتني : من اللحاف :كل ما يتغطى به ، كل ما يلتحف به اى يتغطى ، الشمال : ريح الشمال ، المشملة : كساء واسع يشتمل به ، الطل : الندى .
(٣) طماح : المرتفع ، العالي ، الذوابة : الشعر في مقدمة الرأس ، ذوابه كل شيء اعلاه ، شامخ ، شمخ الجبل فهو شامخ ، علا ، تنطق بالجوزاء : ليس نطاقا (حزاما) ، الجوزاء : برج من ابراج السماء .
(٤) يصيخ : يرهف السمع ، ينتصت ، النجوى : كلام بين اثنين او اكثر غير مسموع . ، وقر : ضعف ضعيف السمع)
(٥) تمهد : تمكن ، بسط ، ركانه : الركن الثابت ، الرزين ، الوقور ، قطب : عبس .
(٦) كبرة السن : الشيخوخة ، الكبر : العظمة ، التكبر .
(٧) لمى الحسناء ، اللمى : سمرة في الشفة .

قدر رق حتى ظن قرصا مفرغـا من فضـة فـي بـردة خضـراء
وغدت تحف به الغصون كانـها هـدب تحـف بمقلـة زرقـاء
وزبـد عـاطيت فيـه مدامـة صفراء تخضب لبدي التعـلاء (٢)
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الاصيل على لجيـن المـاء

الرصافي الرفاء البلنسي (ت ٥٧٢ هـ)

هو ابو عبد الله محمد بن غالب الرفاء الاندلسي الرصافي البلنسي نسبه الى رصافـة بلنسه ولد الرصافي الرفاء الاندلسي في رصافة بلنسية في سنة نجهلها ، وخرج به اهله مـن الرصافة الى مالقة طلبا للرزق وله من العمر نحو عشر سنين وفي مالقة بدأ الرصافي يتلقى شيئا من فنون العلم والادب لا نعرف شيئا من تفاصيلها غير ان الذي نعرفـه ان الرصـافي عاش في مالقة عيشة لهو ومجانة وان مواهبة الشعرية تفتحت باكرا .

وفي سنة (٥٥٥هـ) جاء سلطان الموحدين عبد المؤمن بن علي الى الاندلس ونـزل بجبل الفتح (جبل طارق) ثم استدعى الشعراء فوفدوا عليه ،والقى الرصافي بين يديه قصيدة فيها ثلاثة وستون بيتا صحيحة البناء تفيض بالروح الديني فيها الاشـارات التاريخيـة ولقـد بشرت هذه القصيدة الرصافي الذي لم يكن بعد جاز العشرين بمستقبل زاهر في الشعر .

ثم ان الرصافي انتقل الى غرناطة واستوطنها و واليها يومذاك محرز بن عبد الملـك بن سعيد من غير ان يترك التردد في الحين بعد الحين على مالقة .

غير انه في هذه الاثناء قد زهد في الدنيا الى التكسب بالرفرافة من التكسب بالشـعر ومع ذلك فقد كانت عطايا الامراء والاعيان تصل اليه ، وقضى الرصافي عمره عزبا وفـي رمضان سنة ٥٧٢هـ توفي الرصافي البلنسي في مالقة .

كان الرصافي الاندلسي شاعرا مشهورا في عصره ، وكان يطيل احيانا ويجيـد فـي المقطعات وفي القصائد ، ومع انه كان من الذين ينقحون شعرهم ويجودونه ويتكفلـون فيـه احيانا فقد كان في شعره رقة وعذوبه وفي شعره ايضا تقليد ظاهر للمشارقة ، كان يشبه بـابن الرومي في الغوص على المعاني وفي توليد بعضها من بعض كما كان يقلـد ابـن خفاجـة الاندلسي ،الا انه كان اميل الى الخيال ، وللرصافي مدح قليل ورثاء بارع فيه من التصويـر اكثر مما فيه من التفجع ، ثم له وصف جيد للطبيعة يكثر فيه من وصف الضيعة في وطنـه ، كما تكثر في شعره اوصاف الحياة الدنيا (كوصف النجار ، والصفار ، صانع الادوات مـن

---

(١) يكنفه : يحيط به .

(٢) عاطيت : تناولت ، لجين الماء : اللجين : الفضة ، البطحاء : الارض المنبسطة ، الورود : الذهاب الى الماء للشرب .

الصغر او الشبه أي من النحاس الاصفر) وفي شعره وصف للخمر وغزل مؤنث ومذكر ومجون ويغلب على شعره النسيب والشكوى والحنين الى الوطن والى الماضي .

قال من قصيدة يرثي بها :

وقد ودعت قبلك كل سفر ... ولكن غاب حينا ثم آبا[1]

واهيج ما اكون لك ادكارا ... اذا ما النجم صوب ثم غابا

ارى فقد الحبيب من المنايا ... الى ساي كمن فقد الشبابا[2]

و ما معنى الحياة بلا شباب ... سواء مات في المنعى وشابا

وليل اسى كصبح الشيب قبحا ... اكابده سهادا وانتحابا[3]

تزيد به جوانحي انقادا ... اذا زادت مدامعي انسكابا[4]

أبا عبد الاله نداء يأس ... وهل ارجو لدى رمس جوابا[5]

اصح لي كيف شئت فان انسا ... لنفسي ان تبغلك الخطابا

سقاك مر لاخص رباب مزن ... لعل ثراك قد سئم الربابا[6]

ولكن ما يسوغ على التكافي ... لقبرك ان يكون له شرابا

ساني ربما استسقيت يوما ... لك الجونين : جفني والسحابا[7]

فتخجل من ملوحتها دموعي ... اذا ذكرت شمائلك العذابا

نشأة الموشحات

والموشحات قد نشأت في الاندلس اواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكانت نشاتها في تلك الفترة التي حكم فيها الامير عبد الله (٢٧٥-٣٠٠هـ) وفي هذه السنتين التي ازدهرت فيها الموسيقى وشاع الغناء من جانب وقوي من احتكاك العنصر العربي بالعنصر الاسباني من جانب اخر ، فكانت نشأة الموشحات استجابة لحاجة فنية اولا ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانيا اما كونها استجابة لحاجة فنية فيبانه ان الاندلسيين كانوا قد اولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء ، منذ ان قدم عليها زرياب واشاع فيهم فنه ، والموسيقى والغناء اذا ازدهر كان الازدهار هما تأثير في الشعر أي تأثير ، فيظهر ان

---

(١) سفر : مسافر ، آبا : عاد .

(٢) سأي : سأا ، يسأو : عدا وركض ، سأا يسيه : اقصد .

(٣) السهاد : السهر .

(٤) الجوانح : جمع جانحة والمراد القلب .

(٥) الرمس : القبر .

(٦) الرباب : السحاب الابيض .

(٧) الجونين : الجون : الاسود .

الاندلسيين احسوا بتخلف القصيدة الموحدة ازاء الالحان المنوعة وشعروا بجمود الشعر في ماضيه التقليدي الصارم امام النغم في حاضرة التجديدي المرن .

واصبحت الحاجة ماسة الى لون من الشعر الجديد يواكب الموسيقى والغناء في تنوعهما واختلاف الحانهما ومن هنا ظهر هذا الفن الشعري الذي تتنوع منه الاوزان وتتعدد القوافي والذي تعتبر الموسيقى اساسا من اسسه فهو ينظم اساسا للتلحين والغناء

واما كون نشأة الموشحات قد جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية : فبيانه ان العرب امتزجوا بالاسبان والفوا شعبا جديدا فيه عروبة وفيه اسبانية وكان من مظاهر هذا الامتزاج أن عرف الشعب الاندلسي العامية اللاتينية كما عرف العامية العربية أي كان هناك ازدواج لغوي نتيجة الازدواج العنصري، وكان لابد ان ينشأ ادب يمثل تلك الثنائية اللغوية فكانت الموشحات فمن المقرر ان الموشحات كانت منذ نشأتها الى ما بعد ذلك بقرون تنظم بالعربية الفصحى الا الفقرة الاخيرة منها وهي (الخرجة) فقد كانت تعتمد على عامية اللاتينية وفي ذلك يقول ابن بسام في حديثه عن مخترع الموشحات (انه كان ياخذ اللفظ العامي والعجمي ويسمعه المركز ويصنع عليه الموشحة).

فكانت الموشحات اذن لها جانبان، جانب موسيقي يتمثل في تنويع الوزن والقافية وهذا قد جاء استجابة لحاجة الاندلس الفنية حين شاعت الموسيقى والغناء وجانب لغوي يتمثل في ان تكون الموشحة فصيحة في فقراتها عامية في خرجتها، وهذا الجانب قد جاء نتيجة للثنائية اللغوية المسببة عن الثنائية العنصرية.

الموشح

تعريفه واجزاؤه

للحديث عن نشأة الموشح وما فيه من خلاف له اهمية كبيرة في تقرير اصالة هذا الضرب من الشعر العربي لابد لنا من الماما سريعا بطبيعة الموشح واجزائه .

الموشح في اللغة هو اسم مفعول من الفعل وشح المرأة أي البسها الوشاح وهو سير ينسج من اديم عريض ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها . وهو ايضا عقد يتكون من سلكين من اللآلئ لكل منهما لون خاص .

وهو في الاصطلاح الادبي : نوع من النظم يتألف من فقرات تسمى اغصانا هي عبارة عن اشطار ابيات شعرية بعدد معين وقافية واحدة ويعقب كل فقرة قفل مكون من اشطار في نفس البحر ولكنه بقافية مختلفة.تلزم في كل الاقفال اما الاغصان فقوافيها قد تختلف ولكنها لا تكون الا من نفس البحر ، وكان الاصطلاح ينظر الى الشبه القائم بين طريقة تاليف القوافي في الموشحة وبين هذا العقد.

سبب ما تعرف عن الموشح و القصيدة العمودية ثم قارن بين الموشح و القصيدة العمودية

اجزاء الموشح

ليس هناك اتفاق بين الباحثين القدمي و لا المحدثين على تسمية اجزاء الموشح وسنعتمد في بيان هذه الاجزاء على ابن سناء الملك وعلى ما اختاره الدكتور مصطفى عوض الكريم في كتابه (فن التوشيح) لوضوح مضامين المصطلحات التي تبناها فيه ينقسم الموشح الى الاجزاء التالية :

(١)المطلع او المذهب . (٢) الدور . (٣) السمط

(٤) القفل (٥) البيت (٦) الغصن (٧) الخرجة .

ونوضح فيما يلي المقصود بكل من هذه المصطلحات .

المطلع او (المذهب) : هو المجموعة الاولى من اشطر الموشحة واقل ما تكون من شطرين وقافيته تلتزم في كل اقفال الموشحة وليس المطلع ركنا اساسيا في الموشح ذلك لانه يجوز حذفه ،فان وجد في الموشح فهو (موشح تام) وان حذف فهو (موشح اقرع) .

الدور : هو مجموع الاشطر التي تعقب المطلع في الموشح التام وتكون من نفس بحر المطلع ولكن بقافية مختلفة عن قافيته تلتزم في اشطر الدور الواحد .

السمط : كل شطر من اشطر الدور يسمى سمطا ، وقد يكون السمط مفردا اي مكونا من فقرة واحدة ، وقد يكون مركبا من فقرتين او اكثر .

القفل: هو مجموع الاشطر التي تلي الدور وفي نفس بحره ولكن بقافية مختلفة ، وليس لاقفال الموشحة عدد محدد ولكن الاغلب فيها ان تكون من خمسة اقفال .

البيت : يتألف البيت في الموشحة من الدور مع القفل الذي يليه .

الغصن : هو الشطر الواحد من المطلع او القفل او الخرجة .

الخرجة : هي اخر قفل في الموشح وهي اهم جزء فيه ، وبدونها وبدون الاقفال لا يستوفي الموشح شروطه وهي الجزء الوحيد من الموشح الذي يستحسن فيه اللحن الا اذا كان الموشح للمدح او كانت الخرجة (غزلة جدا او مستعارة من خرجة مشهورة او تكون بيت شعر مضمنا فيستحسن عندئذ ان تكون فصيحة) .

وهناك موشحا نتبعه بتخطيط نوضح لك فيه الاجزاء التي يتكون منها ، قال ابن زهر :

ايها الساقي اليك المشتكى قد دعوتك وان لم تسمع

ونديم همت في غرته
وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكى وسقاني اربعا في اربع

غصن بان مال من حيث استوى
بات من يهواه من فرط الجوى
خافق الاحشاء مرهون القوى
كلما فكر في البين بكى ماله يبكي لما لم يقع
ليس لي صبر و لالي جلد
يا لقومي عذلوا واجتهدوا
انكروا شكواي مما اجد
مثل حالي حقه ان يشتكي كمد اليأس وذل الطمع
ما لعيني عشيت بالنظر
انكرت بعدك ضوء القمر
واذا ما شئت فاسمع خبري
شقيت عيناي من طول البكى وبكى بعضي على بعضي معلي
كبد حرى ودمع يكف
يعرف الذنب و لا يعترف
ايها المعرض عما اصف
قد نما حبك عندي وزكا لا يظن الحب اني مدعي

وتبدو اجزاء هذا الموشح في التخطيط التالي :

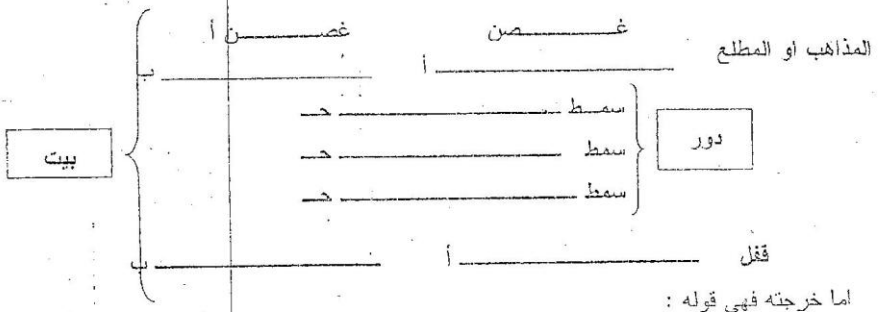

اما خرجته فهي قوله :

قد نما حبك عندي وزكا لا يظن الحب اني مدعي

وقد يكون المطلع مؤلفا من ثلاثة اغصان او اربعة وهذا هو الغالب في الموشحات و الاعم الاغلب في ابيات الموشحة ان تكون خمسة ابيات وقد تصل الى سبعة .

الازجـــــال

ان القرائن تشير الى ان الزجل قد ظهر متأخرا بعض الوقت عن التوشيح لانه يشكل المرحلة الثالثة لتحول الشعر في الاندلس، **المرحلة الاولى** : وهي مرحلة القصيح الذي استمر وسوف يظل كذلك **والمرحلة الثانية** مرحلة ادخال العامية الى الشعر مع التحوير في بناء القصيدة وتعدد الاوزان والقوافي وهي مرحلة الموشحات **والمرحلة الثالثة** هي مرحلة قول منظومات عامية تلتقي مع رغبات العامة ومن لايجيدون العربية كان من الطبيعي ان ينشأ شعر للعامة والاعاجم فلما استولى البربر على الاندلس على عهد المرابطين كان لابد للشعر من ان ينتكس بصورة او باخرى حتى يسهل فهمه من هذا الفريق من العوام .

والقوائلون بان الزجل نشأ متاخرا عن الموشحات يتفقون مع رأي العالم الكبير عبد الرحمن بن خلدون الذي يقول (ولما شاع فن التوشيح في اهل الاندلس واخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريع اجزائه نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيه اعرابا واستحدثوا فنا سموه (الزجل) .

واذا كان العوام والاعاجم قد استعصى عليهم فهم الشعر القصيح فان فرصة ظهور شعر اخر يفهمونه ويستمعون اليه ويطربون له مواتيه ضرورية فجاء الزجل معبرا عن خواطرهم ملتقيا مع عواطفهم متسقا مع قدراتهم على الفهم والتذوق و الادراك .

لقد ظهر في الاندلس زجالون كثيرون وان لم يصل عددهم الى نصف عدد الوشاحين وكان على راسهم ابو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الاصغر الذي بدأ شاعرا فلما احس انه لن يصل الى مرتبة كبار الشعراء وانس في نفسه القدرة على الابداع في الشعر العامي اتجه الى الزجل فأجاد فيه واصبح يحتل في ميدانه مقاما مشابها لمقام المتنبي في ميدان الشعر ، ومن الزجالين الكبار ايضا (احمد بن الحاج المشهور بدغليس) ويعتبره الاندلسيون خليفة لابن قزمان ويجعلون مكانته في الزجل مشابهة لمكانة ابي تمام في الشعر ، وهناك زجالون اخرون كثيرون لعل اشهرهم ابن غرلة ، وابن جحدر الاشبيلي ، وابو زيد الحداد البكازور البلنسي ، وابو عمرو الزاهد .

لقد كان لبعض هؤلاء الزجالين دواوين مماثلة لدواوين الشعراء تماما غير انها ضاعت ولم يصل الينا الا ديوان ابن قزمان ونصوص متفرقة في الكتب التي ارخت للادب الاندلسي او التي عالجت قضاياه مثل (المغرب ونفح الطيب وملح الزجالين) وغيرها وليس من شك في ان عدم وصول هذه الازجال الينا بصورة كافية وتساهل القوم في المحافظة عليها محافظتهم على دواوين الشعر والموشحات ، يرجع الى ان الزجل لم يكن يلقى الاعتبار والتقدير الكافيين للمحافظة عليه خاصة وان حفظه التراث انما هم المتشبعون بحب الفصيح .

واستهجان العامية ومن ثم لم يروا في الزجل رايا كريما يدفع بهم الى المحافظة عليه فاستهانوا به ولم يولوه من الاهتمام بعض ما اولو الشعر الذي كان في الواقع طعام الاندلسيين الذي ياكلون وشرابهم الذي يرتشفون .

لقد اعرض بعضهم عن ان ياتي بمثال واحد للموشحات وهي فن رفيع في كتابه لانه راى فيها منزلقا نحو العامية مثل (ابن بسام في الذخيرة والفتح بن خاقان في كتابيه القلائد والمطمح) فكان من الطبيعي و الامر كذلك ان يتجاهلوا الزجل و لا يقيموا له كبير وزن .

لقد كان الزجل في اول نشأته مقصورا على القول في الغزل واللهو والمجون ثم اصبحت قصائده. ان صح ان نسميها قصائد تعالج الوصف والفخر والزهد والرثاء والهجاء والمديح ومن الطريف ان قصيدة الزجل في المديح كانت ترسم على منوال القصيدة الشعرية الفصيحة فتستفتح بالنسيب او ذكر الخمر ثم تخلص بعد ذلك الى المديح .

لقد احاطت بالزجل ظروف غير طبيعية بحيث راجت سوقه ونفقت بضاعته مما ادى الى اكتساحه الشعر الفصيح في وقت من الاوقات فحين سقط ملوك الطوائف سيطر على الاندلس حكم المرابطين الذين لم يكونوا يتقنون العربية ومن ثم لم يجد الشعراء المجيدون في رحاب امراء المرابطين من علو المكانة والتقدير ما كانوا يجدونه عند اسلافهم من ملوك الطوائف ، فجنح البعض منهم الى انشاء الزجل السهل الفهم حتى يضمنوا لقلهم سواقا نافقة وينالون من الجوائز والعطاء ما يشتهون .

ومن ارق قصائد الزجل التي عالجت وصف الطبيعة مقطوعة للزجال احمد بن الحاج مدغليس ، انها في الواقع قصيدة جيدة في وصف الطبيعة حوت كل ما الفنا ان نراه عند شعراء الطبيعة من اخيلة بارعة وتشبيهات رقيقة واستعارات عذبة وصنعة بديعية محببة ان الفارق الوحيد بين زجل مدغليس وروائع قصائد الطبيعة هو ان هذا صيغ باللهجة العامية وتلك صيغت باللغة الفصحى ويقول ابن مدغليس في روضتيه الرقيقة :

ثلاث اشيا فالبساتين ... لس تجد في كل موضع
النسيم والخضر والطير ... شيم وانزه والسمع
قم ترى النسيم يولول ... والطيور عليه تغرد
والثمار تنثر جواهر ... في بساط من الزمرد
شبهت بالسيف لما ... شفت الغدير مدرع
وراذا دق ينزل ... وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض ... وترى الاخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر ... والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجي الينا ... ثم تستحي وترجع

استمع امر الحسن كف تلهمك الى الخلاعا
بنغم ترد الاشياخ للمجنون وللرقاعا
غردت من غدو لليل وما كررت صناعا
يستمع الخليع غناها ويحس قلب يخلع

بناء الازجال

هذا والزجل من حيث بنائه يخضع لبعض القيود التي تخضع لها الموشحة ولكن قيوده او تكوينه اخف قليلا من تلك التي تخضع لها الموشحة .

فالزجل يستفتح كالموشحة بالمذهب او المطلع الذي يتكون عادة من اربعة اغصان يلي ذلك الدور وكل دور ينتهي بقفل يكون مكونا من غصنين اثنين وتكون قافية القفل متفقة مع قافية المطلع اما الادوار فان لكل واحد منها قافيته الخاصة به ويتكون الدور عادة من ثلاثة قسيمات تكون احيانا قسيمات مركبة وفي هذه الحالة الاخيرة يكون الدور مكونا من ستة اسماط ووحدة القافية امر اساسي في الدور اذا كان بسيطا وفي اعجاز المصراعات اذا كان مركبا وينتهي الزجل عادة بخرجة من بحر وقافية المطلع والاقفال .

هذا وفي القليل النادر تكون الاقفال او الخرجة مكونة من اربعة اغصان مثل المطلع فان الكثرة من الزجالين لم يراعوا القاعدة واكتفوا بالاقفال والخرجة البسيطة .

النثر

الفنون النثرية

لقد تطورت موضوعات النثر الاندلسي على حسب تطور الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية وحالة المجتمع فقد كانت الموضوعات محدودة في العصور الاولى ، من دخول المسلمين الاندلس ، وان طبيعة العصور قد حددت الموضوعات النثرية ثم تطورت في العصور اللاحقة فشملت مختلف العلوم والفنون .

ويرى احد الباحثين ان موضوعات هذا النثر قد تناولت مختلف العلوم والفنون فلم تقتصر الكتابة النثرية على الدواوين والرسائل قصيرة كانت او طويلة مسجعة او مرسلة في العشق والغرام او في الذم واللوم او في المدح و الاستعطاف او غير ذلك . . بل شمل كل شيء في الاجتماع هناك وكان مظهر لتلك المدينة والحالة العقلية والسياسية والعملية .

وقد وصف الكتاب كل ما تقع عليه اعينهم ويتصل بحياتهم كوصف المباني من مساجد وقصور واثار ، وما فيها من صور وتماثيل و وصف مجالس الامراء والخلفاء وابهة الملك والمجادلات والمخاصمات ومجالس العلم والادب وطرق الموضوعات العامة والاجتماعية

وكتابة الحقائق باسلوب خيالي مثل رسالة ابن شهيد كما كتبوا في المناظرات الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم وكتبوا في الدعوات والارشاد والتوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم وفي شعائر الحج وكانت لهم اساليب في الزهد و الاسرار الربانية وبرعوا في فن المقامات كما عند ابن شهيد وكذلك رسائل المناظرات والمفاضلة بين الازهار .

والنثر عندهم قد وسع كل اساليب العرب في المشرق من كلام مرسل سهل وعبارات يتخللها سجع غير متكلف او كلام مسجوع متعمل وكانت هذه الاساليب كلها ظاهرة في جميع العصور وعلى السنة الكتاب و اقلامهم حاشا العصر الاول الى اواسط دولة بني امية حيث كانت الكتابة سهلة قليلة السجع كما في كتب الامراء من بني امية .

الرسائل وانواعها :

يبدو ان موضوع الرسائل من اوسع الموضوعات في النثر الاندلسي لان الكتاب تناولوا فيها مختلف جوانب الحياة ويمكن تقسيم الرسائل الى :

(١) الرسائل الدينية . (٢) الرسائل الاجتماعية .

(٣) الرسائل الاخوانية . (٤) الرسائل الديوانية .

(٥) الرسائل الوصفية .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان هذا التقسيم لا يعني الحرفية في الدلالة على مضامين النماذج النثرية المختلفة حيث يلاحظ المتأمل تداخلا وامتزاجا بين هذه الاغراض فالطابع الاجتماعي مثلا يمكن ان يلاحظ في الرسائل الديوانية والوصفية والاخوانية كما اننا نلاحظ تقاربا وتشابها في مواضيع عديدة بين الرسائل الديوانية والاخوانية وكذلك بين الرسائل الاخوانية والوصفية والنظر في النماذج من خلال الموضوع الرئيسي الذي تقوم عليه والفكرة التي يعتمدها كل منها :

(١) الرسائل الدينية.

ونقصد بالرسائل الدينية تلك التي صيغت لمعالجة موضوعات ذات صلة مباشرة بالاسلام وتكون فكرتها اسلامية واضحة ويشع مضمونها الاسلامي حتى يشمل العبادات و الاخلاق وبعض المعاملات وغيرها مما يرتبط بالاسلام والعقيدة الاسلامية ولهذا كثرت النماذج النثرية المتنوعة لهذه المعاني ، ومنها : التحميد والتسبيح والتعبير عن بعض الفرائض الاسلامية وتاديتها والوعظ والحث على الزهد وطاعة الله و التذكير بالله واليوم الاخر وفي قوة المسلمين وضعفهم والمحن التي يتعرضون لها .

ومن امثلة الرسائل التي تمثل الفرائض الاسلامية وتاديتها رسالة انشأها الوزير الفقيه الكاتب ابو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد يخاطب بها مسلما قادما من الحج ويثني عليه بما

يتجاوز القدر اللازم الى المبالغة فيقول (كتبت وقد هزني وافد البشـــرى واستخفني رائد المسرة الكبرى بما اسناه الله من قدومك محوط الجوانب و الارجاء منـوط الفخـار بذوائـب الجوزاء ومحظوظ الاثار في مواطن الرسل ومواطن الانبياء فيالها من حجة مبرورة ما اتـم مناسكها وواضح في مناهج البر مسالكها لقد شهدت فيه الميقات بخلوص اهلالك واحرامـك ، واهتز البيت العتيق لطوافك واستلامك ورضيت المروة والصفا عن كمال اشواطك ، وتـهلل بطن المسيل لسعيك فيه وانحطاطك ثم بالموقف الاعظم من عرفة سـطع عـرف تشـخصك ودعائك وارتفع خفض تضرعك واستجدائك وفي البيت الاكرم من المزدلفة حظـــي بقربـك وتزلفك وزكا تهجدك وتنفلك وعند الافاضة فاضت الرحمة عليك وكملت النعمة لديك اما منـى فقضيت منها مناك و اوطارك وقبلت هداياك وجمارك وحطت خطاياك واوزارك . . .) .

(٢) الرسائل الاجتماعية :

والمقصود بها الرسائل التي تعبر عن الظواهر الاجتماعية المختلفة واحوال المجتمـع الاندلسي في السياسية و الاقتصاد و الاخلاق و المعاملات وكل ما يصور المجتمع ويـترجم تصرفات افراده والعلاقات التي تنظم شؤونهم ولعل من نافلة القول ان نذكر بـان اصطـلاح الرسائل الاجتماعية من اكثر المصطلحات انتشرية عموما ومجازية وذلك لان هذه تتداخل مـع غيرها من الرسائل ففي الرسائل الدينية امور اجتماعية وكذا في الرسائل الادبية و الاخوانية بل الرسائل الوصفية ايضا ، ولهذا كله كان امر تحديد المصطلح حصره في عدد محدود مـن الموضوعات مما لا ينسجم مع البحث الدقيق والنظر الشامل ولهذا فقد اقتضى جمع عدد مـن الموضوعات ضمن مفهومه على سبيل المثال لا الحصر وعلى اسـاس تمييز النصـوص بالناحية الاجتماعية اكثر من تميزها بالنواحي الاخرى .

والرسائل الاجتماعية تتناول : الشكوى من المصائب والمحـن و رسـائل الافـراح والمجون والزرزوريات(١) والدعوة الى وحدة الصف وجمع الكلمة والحكم و الامثـال ، فمـن رسائل الافراح والمجون رسالة قصيرة للاديب ابي المطرف بن الدباغ وقد وضعها الفتح بـن خاقان تحت عنوان (وله يستدعي الى مجلس انس) (يومنا يوم تجهم محياه ودمعت عيناه وبرقعت شمسه الغيوم ونثرت حبات لؤلؤه المنظوم وملأ الخافقين دخان دجنه وطبـق بسـاط الارض هملان جفنه فاعرضنا عنه الى مجلس وجهه كالصباح المسـفر و جلبابـه كـالرداء

---

(١) هي نوع من الترسل الادبي يعني بالتحدث عن ضرب من الادباء اشبه بالمكدين وقد استعارت هـذه الرسائل في وسط بعض الادباء اسم (الزرزور) و (زرزورين) هي الصغير ممن يشار به هذا اخضار مـن حركة ونشاط .. والرسائل الزرزورية هي : مساجلات بين الادباء تبدأ بأن يرسل اديب رسـالة فـي شـأن زرزور الى اديب آخر توصيه به خيرا او تقوم الرسالة مقام شفاعة وتوصية له فيرد الاديب الآخـر معـددا فضائل الزرزور كما فعل الاديب الاول مشيدا بفضله .

المحبر وحليه يشرق في ترائبه وندة يعبق في جوانبه وطلائع انواره تظهر وكواكب ايناسه تزهر وابارقه تركع وتسجد واوتاره تنشد وتغرد(وبدوره تستحث انجمها محتبية وتقبل انامله مفديه وسائر نغماتها خذ و هاتها واملنا ان تحث خطاك حتى يلوح سناك ونشتفي بمرأك)

(٣) الرسائل الاخوانية :

والمقصود بها الرسائل التي تكتب بين الانداد و الاصدقاء في امور و قضايا مختلفة وغالبا ما تكون بين الادباء انفسهم او بينهم وبين انداد و اصدقاء لهم من القضاة و العلماء وغيرهم و يشكل هذا النوع من الرسائل صورة للمجتمع الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين وما تلا ذلك ان هذه الرسائل تعالج الموضوعات ذات العلاقة المباشرة بالمجتمع في شتى نواحي الحياة ومن هنا فقد تعددت اغراضها وكثرت كما تعددت النماذج المعبرة عنها بشكل واضح ملموس .

وتتمثل الرسائل الاخوانية في : رسائل المديح ، والرسائل الجوابية ، والهجاء و العتاب و الاعتذار والتعازي و الوصايا والشفاعة .

وعليه فالرسائل الاخوانية تصوير لعواطف المودة و الاخاء ومشاعر المحبة المتبادلة و الوفاء و الاخلاص الذي يفترض ان يكون بين المتحابين .

- ومن الرسائل الاخوانية رسالة اعتذار انشأها الاديب ابو عبد الله محمد بن ابي الخصال (ت ٥٤٠هـ) وخاطب بها بعض الاعيان معتذرا عن امر نسب اليه فقال :

(ما كنت اشتم قوما بعد مدحهم و لا اكدر نعمى بعد ما تجب

من يسر فيه ، ايده الله ، للحسنى وفاز من لقائه بالحظ الاسنى فله ما تمنى (وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) ومن اتى الله بقلب سليم واني مع عدم الاستطاعة مزجى البضاعة اتوهم سقوط الفرض واخلد الى الارض واحمل الامر محمل العرض هيهات هيهات ايدل على الفجر سناه ويعرب عن الشجر جناه ويفضح الشناشن اخزم وينسب الحكم الى اكثم وما هو بمطاع ثم امين و لاانا على غيب السيادة بضنين)

(٤) الرسائل الديوانية :

والمقصود بها الرسائل التي تصدر عن ديوان الامارة او الخلافة او المملكة لاغراض عديدة وموضوعات متنوعة بتنوع المهمات التي يباشرها الامير او الخليفة في ادارة شؤون الدولة او الامارة على صعيد السياسية والادارة والسلم والحرب وغيرها ، لهذا كان موضوع الرسائل الديوانية واسعا ممتدا الى العديد من الاغراض والنصوص المكتوبة باقلام عدد كبير من الكتاب وكان من هذه الاغراض والموضوعات :

رسائل التولية والعزل ، ورسائل العهود والمواثيق ، و رسائل المديح والمودة بين الامراء انفسهم ، ومخاطبة الخارجين والمترددين ، ورسائل التهاني والتعازي ، ورسائل الاستغاثة والشفاعة والعتب والاعتذار ، ورسائل الامان والبيعة .

فمن رسائل الامان والبيعة رقعة للكاتب ابي حفص بن برد يقول فيها (بايع الامام عبد الله فلان بانشراح صدره وطيب نفس ونصاحة جيب وسلامة غيب بيعه رضا واختيار لابيعة اكراه واجبار على السمع والطاعة والمؤازرة والنصرة والوفاء والنصيحة في السر والعلانية والجهر والنية والعمل على موالاة من والاه ومعاداة من عاداه من بعيد وقريب وغريب ونسيب ويقسم على الوفاء به والقيام بشروط بيعته بالله الذي لا اله الا هو الرحمن الرحيم)

(٥)الرسائل الوصفية :

والمقصود بها تلك الرسائل التي كتبت للتعبير عن موضوعات عديدة كالطبيعة وما فيها من ازهار واشجار وثمار واطيار وانهار وليل ونهار و الانسان والجماد وغير ذلك مما عبر عنه الاديب الاندلسي وصوره تصويرا واضحا مفصل عوامل تظافرات وادت بالتالي الى اهتمام الادباء والكتاب به والتفرغ له ، ولعل في مقدمة هذه العوامل الطبيعة الاندلسية ذات الجمال الخلاب والمناظر الرائعة الممتدة في عديد من البقاع المحيطة بالمدن والحواظر الاندلسية وعلى الطرق التي تربط بينها وضفاف الانهار حتى كان من اصداء تلك الطبيعة ان عمت على الادب ظاهرة الوصف ، وفضلا عن عامل الطبيعة هناك عوامل اخرى تكمن في طبيعة المجتمع الاندلسي المحب للتأنق في الملبس والمشرب والمأكل وفي الزينة والوان الرفاه و الانس وكذلك حب هذا المجتمع و ذوقه في التأثر و الانفعال بالصور والمشاهد المختلفة وعامل الرفاه الاجتماعي و الاقتصادي الذي مرت به البلاد في حقب عديدة من حياة المسلمين هناك .

والنماذج النثرية الوصفية استطاعت تصوير الحياة وترجمة علاقتها بالانسان و تفاعله بها و دلت على ذوق رفيع وحس مرهف وقدرة على صياغة الافكار بانطاق الجماد والنبات و الازهار ، وتتمثل الرسائل الوصفية في : وصف الطبيعة ، المناظرات والمفاخرات بين الازهار وغيرها ، وصف القلم و المداد والكتابة ، وصف الحرب وعددها وما يتعلق بها ، وصف الانسان والحيوان .

ولابي حفص بن برد رسالة في وصف يوم ممطر و ليل وما كان فيه من انس وفرح بين الاصحاب فيقول : (اليوم يوم بكت امطاره ،وضحكت ازهاره ، وتقنعت شمسه ، وتعطر نسيمه، وعندنا بليل هزج، وساق غنج وسلافتان ، سلافة اخوان وسلافة دنان قد تشاكلتا في الطباع و ازدوجتا في اثارة السرور فاخرق الينا سرادق الدجى تجد مرأى لم يحسن الا لك

ولم يتم الا بك، الزيارة في الليل اخفى ، وبالزائر والمزور احفى وقد سدل حجابه و وقع غرابة وتبرقعت نجومه بغيومه ، وتلفعت كواكبه بسحائبه فاهتك الينا ستره و خض نحونا بحره . . . . .)

المناظرات :

هذا نوع من الفنون الادبية وهو فن المناظرة ، وتعني المناظرة ان يحشد الكاتب مجموعة من الادلة تثبت ان هذا الفن اجدى وانفع من الاخر او ان هذا الشاعر اشعر من ذاك او ان هذا الفصل من السنة احلى واعذب من غيره او ان هذا اللون من الزهور اجمل وافضل من غيره وهكذا ، ولذلك فانت تجد مناظرة بين جرير والفرزدق ، او بين ابي تمام والبحتري وقد تجد بين الصيف والشتاء او بين الخريف والشتاء او ما شبه ذلك .

وفي الادب الاندلسي تستأثر الازهار و الرياض والسيف والقلم وموضوعات اخرى باهتمام الادباء الى درجة كبيرة حتى رايناهم يذهبون في هذا الاهتمام مدى يتجاوز وصف الرياحين والرياض و الانوار الى انطاقها واجراء الحوار بينها على اساس من التفاخر والتباهي والمناظرة بحيث يدلي كل نوع بخصائصه ومميزاته ،او تتقسم مجموعات الازهار الى فئات يجند كل منها نوعا معينا على اساس من مميزاته سواء في اوقات تفتحه واستمرار حياته او في رائحته وعرفه .

وقد اوردت المصادر الاندلسية قدرا وافرا من هذه المناظرات على شكل رسائل مطولة وفي مقدمة من مارس هذه الفن من الاندلسيين ابو حفص بن برد الاصغر في تفضيل الورد، وابو الوليد اسماعيل بن محمد الملقب بحبيب الحميري في تفضيل النهار، ولابي عمر الباجي رسالة على لسان البهار ، كما ان لابن حسداي رسالة على لسان النرجس و لابن بود رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم كتبها الى الموفق ابي الجيش مجاهد العامري وبناها على المناظرة والمفاخرة اذا يتبارى الاثنان ، السيف والقلم في تعداد المآثر المنسوبة اليه والفضائل التي يعتقد انها موجودة فيه .

يفتتح ابن برد رسالته بمقدمة وصفية يتحدث فيها عن قيمة السيف والقلم ينتقل بعدها الى المناظرة التي يبدأها القلم فيقول :

(فقال القلم : ها الله اكبر ايها المسائل بدءا يعقد لسانك ويحير جنانك، وبديهة تملأ سمعك وتضيق ذرعك ، خير الاقوال قول الحق واحمد السجايا الصدق و الافضل من فضله عز وجل في تنزيله مقسما به لرسوله فقال (ن والقلم وما يسطرون) وقال (اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم) .

فقال السيف : عدنا من ذكر الشريعة الى ذكر الطبيعة و من وصف الملة الى وصف الخصلة لا اسر ولكن اعلن قيمة كل امرئ ما يحس، ان عاتقا حمل نجادي لسعيد وان عضدا بات و سادي لسديد ، وان فتى اتخذني دليله لمهدي وان امرءا صيرني وسيلة لمفدي.

فقال القلم نعوذ بالله من الحور بعد الكور[1]، وقبحا للتخلي بالجور، والخيانة تسود ما بيض الصفاء ، وتكدر ما اخلص الاخاء وتؤكدا اسباب الفتن وتضرب بقداح الفتن الحق ابلج والباطل لجلج . . . احكم فاعدل واشهد فاقبل وترحل عزماتي شرقا وغربا ولا ارحل اعد فأفي واستكفى فاكفي ، احلب الغنى من ضروعه واجتني الندى من فروعه وهل انا الا قطب تدور عليه الدول . . .

فقال السيف . . . يالله !! استنت الفصال حتى القرعى[2] ، ورب صلف تحت الراعدة[3] لقد تحاول امتدادا بباع قصيرة وانتفاضا بجناح كسيرة ، امستعرب والفلس ثمنك ومستجلب وكل بقعة وطنك . . . ان الملوك لتبادر الى دركي و لتتحاسد في ملكي ولتتوارثني على النسب و لتغالي في على الخسب فتكللني بالمرجان و تنعلني العقيان[4] . .) .

وهكذا يستمر الحوار والمفاخرة يتكلم السيف ويتفاخر بصفاته وفضائله واثاره ثم يرد القلم مفاخرا متباهيا ، ولكن الذي يلفت النظر في الرسالة انها لا تختم بتغلب احدهما على الاخر فكأن قوة كل منهما وما اورده من حجج ادت الى تعادلهما وعدم استطاعة أي منها التغلب على خصمه .

المقامات

تندرج المقامة تحت النثر القصصي والمقامة في الاصل من المقام (اي من موضع القيام ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان ثم كثرت حتى سموا الجالسين في المقام مقامة كما سموهم مجلسا الى ان قيل لما يقال فيها من خطبه او عظة وما اشبهها مقامة او مجلس فيقال مقامات الخطباء ومقامات القصاص ومقامات الزهاد . . .) وهناك تعريفات كثيرة للمقامة من حيث الاصطلاح منها :

(المقامة شبه قصة قصيرة تدور حول بطل وهمي يروي اخباره رواية وهمي ايضا وبطلها رجل احكم التحيل وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق فكانت اخباره كلها تدور حول الكدية و الخداع لا تربطها وحدة موضوعيه ولا تحببها شخصيته حقيقية وهي

---

(١) الحور ، النقصان : الحور بعد الكور : يعني النقصان بعد الزيادة .

(٢) الفصيل : ولد الناقة اذا فصل عن امه والجمع فصال ، الاقرع : الذي ذهب شعر راسه .

(٣) مثل يضرب للبخيل مع الوجه والسعة ، او لمن يقول كثيرا و لايفعل او لمن يكثر مدح نفسه و لا يفعل.

(٤) العقيان : الذهب .

ميدان لغرض النكته والتمويه و اظهار البراعة . . وبنوع خاص لاظهار المقدرة اللغوية و الادبية).

والمقامة فن مشرقي ويذكر القلقشندي ان (اول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر امام الادب البديع الهمداني . . . . ثم تلاه محمد القاسم الحريري فعمل مقاماته الخمسين المشهورة . . .) .

اما هدف المقامة فهو (التعليم وتقلين الناشئة صيغ التعبير وهي صيغ حليت بالوان البديع وزينت بزخارف السجع وعني اشد العناية بنسبها ومعادلاتها اللفظية وابعادها ومقابلاتها الصوتية) .

انتقلت المقامة او فن المقامات من المشرق الاسلامي الى الاندلس عن طريق العلاقات الثقافية و العلمية و الاجتماعية والدينية ومن مظاهر قوة هذه العلاقات ومتانتها تلك الرحلات التي كان علماء الاندلس و المثقفون و التلامذة يقومون بها لينهلوا من علماء المشرق واساتذته في مختلف العلوم والفنون وكان ذلك من مفاخرهم التي لا تدانى وهكذا اقبل الاندلسيون على اثار المشارقة ومؤلفاتهم فدرسوها ثم نقلوها الى بلادهم ، وبهذا تكون الرحلة في طلب العلم من الاسباب الهامة في نشأة المقامة في الاندلس وقد اشارت المراجع الى الصلة بين بعض الاندلسيين و الحريري فقد وجد منهم من سمع منه مقاماته ومن هؤلاء احمد بن محمد بن خلف الشاطبي سمعها مع ابي القاسم بن جهور في جمادى الاول سنة ٥٠٥هـ ومنهم الحسن بن علي بن الحسن البطليوسي سمعها منه ببستان ببغداد، ومنهم ابو الحجاج القضاعي و رواها عن تلامذه الحريري عبد الله بن ابراهيم الوادي آشي .

ومن ثم نلاحظ ان ادباء الاندلس قد بدأوا بممارسة هذا الفن في وقت مبكر من القرن الخامس الهجري وبعد وصول مقامات بديع الزمان ، ويرى بعض الباحثين ان من اول المتذوقين لها الناسجين على منوالها (ابن شهيد) واكثر ما اعجبه فيها تلك القطع الوصفية ولذلك انشأ على امثالها قطعا في وصف الماء و البرغوث والثعلب و الحلوى . . . يقول ابن شهيد في الحلواء :

(ثم خرجت في تتمه من الاصحاب و ثبة من الاتراب وفيهم فقيه كان ذا لقم ولم اشعر به فلما طالعتنا الحلوى صاح ، هذا وابيكم الروض ، فناديته اسكت فضحتنا لا ابالك ، فقال لا وابيك ، قلت مالك ؟ و مارتريد ؟ قال ذلك الشهيد العتيد و اضطرب به الالم و استخفه الشره ، فدار في ثيابه واسال من لعابه وازور جانبه وخفق شاربه ، ثم نهض ونظر الى الفالوذج فصاح ، بابي الغالي الرخيص انظر فيه التحاح اكرم به من شعاع ، هذا جليد سماء الرحمة تمخضت به فابرزت منه زبدة النسمة ، تجرحه اللحظة وتدميه اللفظة ، فجعل يقطع ويبلع ويوجر فاه ويدفع وعيناه تبصان كانهما جمرتان ، وانا اقول : على رسلك يا فلان